

مدرسة المغفلين

توفيق الحكيم



مدرسة المغفلين

بقلم
توفيق الحكيم

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠



مقدمة

بعض القصص التى يضمها هذا الكتاب قد بنى على حوادث وقعت بالفعل فى مجتمعنا ، كما أن بعضها بنى على ما يحدث فى الحياة الإنسانية .

وهناك فرق بين تصوير المجتمع وتصوير الحياة ، فمصور المجتمع لابد أن يتقيد بما رأى وشاهد وعرف ، إذا أراد أن يكون صادقا ، فلا ينبغى له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها .

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعى .. أما تصوير الحياة فأمر آخر ، لأن الحياة أشمل من الواقع . فالحياة الإنسانية يدخل فى نطاقها الواقع وغير الواقع ، لأن حياة الإنسان ـ على خلاف حياة النبات والحيوان ـ لا تقف عند حد الوجود المادى .. بل هى تشمل الوجود فى مختلف نواحيه ، المنظورة وغير المنظورة ، المادية والروحية .

ولعل سمو قصة « هاملت » لشكسبير راجع إلى إحاطتها الكاملة بالحياة البشرية ، فى غرائزها ومشاعرها وخيالاتها وأشباحها وتفكيرها ، فيما هو كائن على الأرض وما هو غير كائن إلا فيما بعد الموت ..

حياة الإنسان هى أعجب ما فى الخليقة لأنها أوسع ما فى الخليقة .

والقصة القصيرة ، باعتبارها لونا من ألوان الفن ، يجب أن تتناول ذلك كله فيما تتناول من شئون الإنسان فى مجتمعه وحياته . ومهمتها فى ذلك

عسيرة . لأنها فن اقتضاب وتركيز ، شأنها في ذلك شأن المسرحية والقصيدة .

وهذا التركيز هو الذى قد يجعل منها فن المستقبل - في رأى بعض أهل الأدب العالمي اليوم - ذلك أن أدب المستقبل لن يحتمل الإسهاب . وقارئ اليوم والغد تكاد تكفيه اللمحة الخاطفة لإدراك الصورة الكاملة ، وتكاد تغنيه الإشارة عن الإطناب في العبارة .

فالقارئ الحديث الذى يعيش في عصر الطائرات النفاثات لن يطيق طويلا الاسترخاء في مطالعة مئات الصفحات ليحيط بصورة من الصور أو شخصية من الشخصيات . كما أن وجود الراديو والتليفزيون لن يتيح وقتا لقارئ ينفقه في مطالعة كتاب طويل إلى جوار المدفأة ، كما يقول الأوروبيون . فإن ركن المدفأة الذى ترعرعت في كنفه القصص الطويلة لأمثال بلزاك وفلوبير ودستوفسكي وتولستوى وسكوت وديكنز وغيرهم ، هذا الركن لم يعد يحتله الكتاب وحده الآن كما كان في الماضى . بل يشاركه فيه اليوم صناديق الفن الصوتى والمرئى وبرامج مختلفة من مسموع ومنظور .

أترى مجد القصة الطويلة قد انقضى بانقضاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟

مهما يكن من أمر ، فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من ضغط وتركيز وإيجاز وتلميح هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث في مستقبله القريب .

ومن يدرى ؟ فقد تدور الأيام دورتها ، وتصبح البلاغة فى عـرف العـالم
دم ، كما كانت فى عرف الأدب العربى الغـابر ، هـى بلاغـة الإيجـاز ،
ضها على العالم اليوم عصر السرعة .. كمـا فرضهـا قديمـا عنـد العـرب
حل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء .

السرعة فى كل زمان ومكان تنمى فى الإنسان سـرعة الإدراك وسـرعة
نى والاستيعاب ، فيتخذ الفن تبعا لذلك من القوالب ما يتفـق مـع روح
سر والحياة .

توفيق الحكيم

مدرسة المغفلين

هب من فراشه بعد منتصف الليل على طرق الباب ، وقام ليفتح ، وهو كالسكران من حلاوة النوم ، ومشى فى دهليز مسكنه الذى يبيت فيه وحده ، مشية غير الواثق من يقظته ، ثم فتح بغير تفكير ، وإذا شاب يدخل صائحا :

ـ ارحمونى .. ارحمونى ..

ويندفع إلى البهو ، فيضىء أنواره كلها ، ويختار مقعدا ضخما فخما يرتمى فيه ، ويخرج من جيبه ورقة ، طفق يقرأ منها بأعلى صوته :

ـ ارحمونى .. ارحمونى ..

فأقبل صاحب البيت يجر قدميه ويسأل متثائبا :

ـ ماهى المسألة ؟

ـ المسألة خطيرة جدا ، إنه الحب ، إنه السهاد ، إنه البعاد .. طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة ، لعلها ترق وتحن ، لقد قطعت لها قلبى ، لأضع فى كل كلمة قطعة .. اجلس واسمع ..

فلم يجد صاحب الدار بدا من الإذعان ، فالضيف صديق لايجب إغضابه ، وهو فى عرف الذوق واللياقة مكلف بإكرامه وإرضائه ، فجلس مكرها ،

يغالب الكرى ويتجلد ، ويصارع النعاس ويتماسك ليسمع شعرا ونظما في الهزيع الأخير من الليل .

ونشر الضيف الورقة في يده وأنشد :

ارحموني .. ارحموني .. طار نومي من عيوني

وتنبه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجفانه الحمراء :

ـ عيون من التي طار نومها ؟

ـ عيوني أنا طبعا .

ـ آه .. طبعا .

ومضى الضيف في التلاوة ، حتى قطع فيها شوطا ، فلم يجد لإنشاده صدى ، ولم يسمع على خريدته تعليقا .. فرفع بصره إلى ذلك الذي يلقي عليه أبياته ، وينثر عليه آياته ، فوجده يترنح ويتمايل .. لا من الإعجاب .. ولا من الطرب .. طبعا .

فكف عن القراءة وصاح :

ـ أنا آسف ، يظهر أنك متعب ، خير الأمور أن تقوم ..

فأيقن النائم بالفرج ، ولم ينتظر ، ووثب من مقعده ، كأنه عبد أعتق ، أو سجين أطلق ، ولسانه يلهج بالشكر ، ولكن الضيف استأنف :

ـ نعم ، خير الأمور أن تقوم فتصب على رأسك كمية من الماء البارد ، لتفيق وتنشط وتسمع بقية القصيدة ، لأنها طويلة جدا .

وهنا لم يطق صاحب البيت صبرا . ولم ير في ذمته للضيافة حقا ، فانفجر يلعن الحب والمحبين ، والشعر والنثر ، وقصائد الغناء والبكاء وكل

ما على الأرض من نساء .. وترك المكان . وذهب إلى حجرته ، واندس في فراشه ونام .

مرت شهور على تلك الليلة ، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيم شيئا .. ثم ترامت إليه الأخبار بأن ذلك الغرام الذى أنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل ، قد جر صاحبه إلى أحرج المآزق ، فالحبيبة معلقة بعنقه كأنها قصيدة من معلقات الكعبة . لابد من الزواج . تلك صيحتها التى لا تنزل عنها ، وبغيتها التى لا مفر منها . ولكن كيف يتزوجها ، وقد عرف عنها ما عرف ؟ إنها فتاة لعوب ، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطئ المرح ، المبرزات فى ملاهى الغزل . كم داعبت ولاعبت . وفتنت وسحرت . ولو أنطق اللّه سلك التليفون لجهر بعدد مغازلاتها . ولو تحدثت رمال البلاج وموائد « الأوبرج » ، لما اختلفت على مقدار غمزاتها وبسماتها ولفتاتها ..

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه ، الغيور على اسمه وشرفه . كل شيء إلا الزواج من هذه الفتاة . إن الحب شيء والزوجية شيء آخر . إنه ليس مغفلا حتى يخلط بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل .. لا .. لن يتزوجها . على الرغم من جمالها الفاتن ومركز أسرتها البارز . أما هى فقالت بلسانها ولسان من توسط فى الأمر أن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء ، وقد أصبح مألوفا فى عصرنا الحاضر . عصر الحرية والنور . فكثير من الزوجات الناجحات شبعن لعبا ومغازلة قبل الزفاف . إنها حجة واهية ، يجب ألا يتذرع بها رجل جاد ..

وانتصرت المرأة فى النهاية ، كما تعودت دائما أن تنتصر . ووقع الرجل في « الزوجية » كمن يقع في « حفرة » .. لا يدرى كيف لان وأذعن ، وقال « نعم » .. ولا يذكر بالضبط كيف ساخت قدمه .. ولكنه أخذ يعلل نفسه ويمنيها ويقنعها بقوله : « مع غيرى ربما صحت المخاوف .. ولكن معى أنا ، مع مثلى ! .. وأنا أعرفها أكثر من أمها التى ولدتها ، وهى تعرفنى وتعرف طباعى العنيفة وشكيمتى القوية وغيرتى الشديدة وعينى الساهرة .. »

* * *

هذا ما كان من أمر الضيف المغرم ، أما ما كان من أمر صاحب البيت ، فهو لا يعرف الشعر ولا الحب . وكل ما يعرف أن وحدته فى بيته قد ثقلت عليه . وأن البيت بلا امرأة جسد بلا روح ، وأن همه فى منزلة أن يخرج من حجرة ليدخل أخرى ، ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة :

« العزوبية » طالت عليه يا امى اخطبى لى حلوة وغنية

ولم يكن لديه أم تخطب له . ولم يكن من الضرورى عنده أن يتشبث بشرط الحلوة الغنية . يكفيه الحل الوسط . إنه رجل مسالم قنوع .. ولكن ، من يبحث له ؟ وهنا تذكر سيدة من صديقات الأسرة .. امرأة نصف وزوجة رجل محترم ، لها علم راسخ بأخبار المجتمع الراقى .. خاطبها بالتليفون ، وأبان لها عن طلبته . فقالت ضاحكة : « أتقبل نصيحتى ؟

الزواج في عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر : «على عينك يا تاجر».. الطريقة المتبعة الآن أن تحضر المجتمعات والحفلات وتختار من تعجبك ، وتسأل عنها .. وها هى الفرصة سانحة . فى الأسبوع المقبل حفلة خيرية في « الأريزونا » ستلقى فيها كل أنيقات القاهرة ، من سيدات وفتيات . تعال وانظر .. وأخبرني هناك وأنا أدلك .. »

ووافى موعد الحفلة الخيرية . وكان مساء جميلا لمعت فيه عيون النجوم وتألق القمر . فارتدى رداء السهرة ، وذهب على بركة اللّه ، ولم يمض قليل ، حتى غاص في بحر أضواء السماء والكهرباء والنساء ، وأوغل فى روضة الشجر والبشر . وامتدت حوله أيدى الأغصان وأذرع الحسان . واستقبلته كواعب بائعات الفتنة في صورة بائعات للورد . وأحطن به من يمين ومن شمال . إنه حصار الجمال . ورد يبيع وردا . وأزهار تحمل أزهارا . فأخرج من جيبه النقود عن غير وعى ، ونثر وبذر ، ليحصد البسمات والنظرات . ها هى ذى سوق الملاحة والرشاقة والدلال .. ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟ ومن يحب ومن يكره ؟ ومن ينبذ ومن يختار ؟ . فغشى بصره وزاغ نظره . وارتبك وحار .. ثم انتبه على صوت يناديه . فإذا هى السيدة الخبيرة التى سألها هدايته . أقبلت عليه وقادته كالربان الماهر فى خضم موائد الأكل ومواكب الحسن . وهمست فى أذنه :

ـ ألم تعجبك واحدة ؟

فقال على الفور :

- أعجبنى الكل : أحب هذه ذات الثوب الوردى ، وأحب تلك ذات الثوب البرتقالى ، وأحب الدانية ذات الثوب البنى . وأحب البعيدة ذات الثوب الكحلى . وأحب الضاحكة ذات الثوب البندقى . أحب هذه ، وهذه ، وهذه ، وهذه .. أحب الجميع ..

فضحكت وقالت :

- ليس من المعقول أن تتزوج كل من فى الحفلة . يجب أن يقع اختيارك على واحدة بالذات .

- هذه الحفلة « الخيرية » وإن شئت فقولى «سوق النخاسة العصرية» ، تعج ببضاعة تبهر العقل .. ولم أعد أدرى أأنا البائع فى هذه السوق أم المشترى ؟ لقد تهت وضللت .. تخيرى لى أنت بصائب حكمتك وواسع خبرتك ! ..

فأشارت إلى مجموعة من النساء متلألئة ، تزرى بالمجموعة الشمسية ، وقالت :

- ألق نظرة على هؤلاء ..

- أكلهن للزواج ؟

- بالطبع . كل من ترى هنا .. الفتيات يردن أن يتزوجن والزوجات يردن أن يتطلقن ..

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية ، والصدور المكشوفة والبسمات الفاتنة ، والنظرات المفتونة ، وقال فى نفسه : أين ذلك العهد

الذى كانت تسمى فيه المرأة « السيدة المصونة والجوهرة المكنونة » ؟ ! ترى ماذا يجب أن تسمى اليوم ؟ ..

وأخذ يفكر فى اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطبق عليها الآن .. ولكن حبل تفكيره انقطع فجأة .. فقد لمح عن بعد صديقه الضيف ، صاحب القصيدة ، يدخل من الباب ، وقد أحاطت به بائعات الورد كالمعتاد .. ولمحته فى عين الوقت الست الدليلة الهادية فهمست قائلة :

ـ صاحبك ! ..

ـ نعم . إنه يدخل وحده . عجبا ! .. أين زوجته إذن ؟ بلغنى أنك كنت إحدى الساعيات فى الخير بينهما .. وكنت ممن توسط فى أمر ذلك الزواج .

فقالت السيدة بصوت الجد :

ـ حقيقة .. شوشو صديقتى ، وكنت أظنها تمشى بعقل بعد زواجها . ولكن ، كلام فى سرك .. أنا لا أحب أن أكون مسئولة عنها الآن . أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق فى اللهو .. ولكن على شرط أن تكون فى منتهى الحذر حتى لا يلحظ عليها شىء .. وأن تتصرف بغاية الحرص حتى لا يبدو على سلوكها شك . أما شوشو فلا أدرى ماذا جرى اليوم لعقلها .. إنها ـ فضلا عن علم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة فى نفس الوقت ـ لا تحاول أن تدارى أمورها ، أو تستر تصرفاتها . تصور أنها فى وضح النهار تنزل من سيارتها أمام دهبية معروفة ومعها حقيبة صغيرة تحوى « بيجامتها » الحريرية .. وكل هذا تحت سمع السائق

وبصره وتحت نظر من يمر من المعارف والفضوليين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها .. لا .. شوشو فى الحقيقة متهورة اليوم أكثر من اللازم ، وإني أرى منها كل ذلك وأقول في نفسي « ربنا يستر » .. فكل الناس يعرف سيرها الآن .. أمرها شاع ورائحتها فاحت ..

- وزوجها .. ألم يشم الرائحة ؟

- الظاهر أنه مزكوم ، كأكثر الأزواج .

وكان زوج شوشو عندئذ قد تخلص من بائعات الورد ، وسار يفحص بعينيه الجموع ، كأنه يبحث عن أحد . حتى أشرف عليهما .. فلما صار على خطوات منهما لمحهما هو الآخر فأسرع نحوهما وحياهما . وعاتب صديقه صاحب البيت عتابا هادئا يخالطه المزاح ، لما لقيه فى بيته من إهمال ، في تلك الليلة التى تفجرت فيها شاعريته ... على أنه انتقم ، كما قال ، فلم يدعه إلى حفلة قرانه ولا إلى بيت عروسه .. وهنا التفت إلى السيدة قائلا بلهجة العجلة واللهفة :

- شوشو .. ألم تلمحيها هنا ؟ لقد سألتنى أن أسبقها .. قائلة إنها ستمر ببعض صديقاتها أولا .. وقد رأيت الذهاب لبعض أعمال أخرتنى ، وجئت حاسبا أنى أجدها .. لاشك أن حديث صديقاتها شغلها عن الوقت .. إنه لمن حسن الحظ أن أقابلك هنا الليلة . إنها خير مناسبة أقدم لك فيها شكرى . كاد يمضى نصف عام على زواجى ، الذى توسطت أنت فيه ولو تعلمين كم أنا سعيد ! .. لقد كنت مغفلا يوم ترددت وتمنعت وتخوفت . ألا تذكرين كم جاهدت أنت لإقناعي ؟ الحق كان فى جانبك . شوشو

اليوم ملاك . وإنى أضحك من نفسى لرأيى السابق فى طيشها . إنك ولا شك قد لاحظت اليوم كم تغيرت وعقلت . الحمد للّه ، مخاوفى كانت فى غير محلها . لقد ظلمت المسكينة . وهى فى الحقيقة زوجة طيبة مخلصة يندر أن يوجد لها مثيل ..

ومضى فى هذا الكلام .. وصديقه « صاحب البيت » يصغى إليه فاغرا فاه .. لا يصدق ما يسمع . إلى أن تأكد له أن أذنه لم تخدعه . فهمس قائلا :

ـ إنا للّه وإنا إليه راجعون !

ولم يلبث هذا الزوج أن جذبته من ذراعه يد أحد المعارف . فاستأذن ومضى معه إلى مائدة عامرة بالأصدقاء وترك صاحبه والسيدة الدليلة الهادية يتبادلان النظرات ، صامتين بلا تعليق .. وأخيرا نطقت السيدة قائلة :

ـ واللّه شاطره ! ..

ـ شاطره !؟ وهل هذا مصيرى أنا أيضا ؟ وهل نصيحتك لى ستكون من هذا القبيل ؟

فضحكت وقالت :

ـ لا .. لا تخف .. ظروفك أنت مختلفة كل الاختلاف ، ومع ذلك ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأذنك فلا يصح لى أن أغشك .. هل تريد الصراحة ؟ إذن اسمع رأيى : هذا جيلك الجديد وهذا عصرك . خذ الأمور كما هى ولا تخدع نفسك . واعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحدة منهن على الأقل عشيقان أو ثلاثة .. وأن تلك التى يقال إنها نظيفة السمعة ولم يسمع عنها أحد شيئا ، هى التى لها عشيق واحد .. فإذا أردت منى أن

أغالطك ، أو أن أشجعك على مغالطة نفسك ، فهذا أمر آخر .. ولكني أنصحك أن تنظر إلى الواقع اليوم بعين الواقع ..

وسكتت لأن الموسيقى الراقصة دوت في المكان .. وقام من كل مائدة زوجان .. ودق الطبل ورن النحاس وعوى « السكسوفون » فكان لمزيج أصواتها صدى يشبه صراخ الحيوان الجوعان .. ولعبت الأجساد بالأجساد .. واحمرت العيون ونددت الشفاه واتسعت الأحداق .. واضطربت الأفكار في رأس « طالب الزواج » ماذا يصنع ؟ وماذا يقول ؟ وعلى ماذا يعول ؟ ..

وظل في اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلت الرقصة في اختلاطها ولعبها بأفئدة الراقصين والمشاهدين .. إلى أن انتهت الرقصة . وصمتت الموسيقى ، وصفق الحاضرون . وأقبل البعض على البعض يتحادثون .. فالتفتت السيدة الهادية إلى زميلها الخاطب قائلة :

ـ لم أتلق جوابك .. ماذا قررت ؟

فأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

ـ أمرنا إلى الله . ابحثي لنا إذن عن واحدة شريفة ، عفيفة ، سمعتها طيبة ، ليس لها غير عشيق واحد !!

الشيخ البلبيسى

لم أره قط رؤية العين .. ولكنى سمعت به ممن رأوه وعرفوه .. فقد كان لذلك الرجل صيت فى الأقاليم منذ أكثر من ثلث قرن .. كان رجلا فارع الطول ، فيما يقال ، ضخم الجرم ، ذا هيئة تفرض على الناس التبجيل والاحترام .. وكان شديد العناية بثيابه ، لا يرتدى منها إلا ما غلا فى الثمن وزاد فى المهابة .. كان عظيم الهامة ، أشيب اللحية ، طويل المسبحة ، كبير العمامة ..

*   *   *

روى لى محدثى عنه قائلا :

ـ عرفت الشيخ « البلبيسى » لأول مرة فى دار الباشا المدير . دخلت عليهم فى تلك « المنظرة » التى كان يجتمع فيها من حين إلى حين جلة علماء المديرية وأكابر أعيانها : فأبصرت « الشيخ » بطلعته الجليلة فى صدر المجلس ، فما شككت فى أنه أعظمهم فضلا وأرفعهم قدرا .. فلما قدمنى إليه المدير ، لم أنتظر حتى أعى اسمه ، وانكببت لهيبته ، على يده أقبلها .. فسحبها منى برفق وأفسح لى مكانا إلى جواره ، وهو يقول بصوته الوقور :

ـ أستغفر اللّه يا بنـى ، أستغفر اللّـه ! .. علـى مـن أخـذت العلـم فـى الأزهر الشريف !؟ ..

فعلت وجهى حمرة الخجل وقلت :

ـ لم أدرس العلم .. ولكنى رجل مزارع من ذوى الأملاك ..

فربت على يدى بكفه قائلا :

ـ وأنعم بالزراعة والزراع !.. من يزرع خيرا يحصد خيرا ، ومن يزرع ..

وسعل سعالا خافتا غريبا كأنه عواء .. جهـد فـى كتمـه بكمـه ومضـى يقول متلطفا :

ـ كيف اتفق أننى لم أرك هنا من قبل ؟

فقلت وأنا ألقى نظـرة علـى الباشـا المديـر المتشـاغل عنـا بضيوفـه وهـم يتحدثون ، فيمـا بينهـم ، هامسـين ، حتـى لا يزعجونـا ، فيمـا اعتقـدت ، بأصواتهم :

ـ إنى قليل المجىء إلى البندر . ولا أغادر أرضى وعزبتى إلا إذا دعتنـى إلى ذلك المصالح أو الضرورات ..

فقال الشيخ وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبات مسبحته :

ـ حسنا فعلت يا بنى .. لقد قـالوا فـى الأمثـال : الأرض التـى لا تـرى قدم صاحبها لا تفلح ...

وسعل ذلك السعال الغريب المكتوم وقد وضحت معالمه المشـابهة لعـواء الكلب .. فأخذتنى رعدة .. وأحس ذلك منى .. فمال على أذنى هامسا :

ـ هل أزعجك سعالى ؟ . لا تخش شيئا .. هذا أمر يأتى أحيانا ويمر مر الكرام ..

فقلت له باطمئنان :

ـ بل لا تنزعج فضيلتك .. إنما هو برد عارض من برد هذه الأيام ..

فقال لى بنبرة وقور هامسا :

ـ لا .. يابنى .. هذا ليس ببرد .. إنى ما تعودت الكذب . إنما هو مرض آخر .

ـ ليس خطيرا على كل حال ..

ـ أرجو أن يبرئنى اللّه منه ..

وسعل .. أو على الأصح عوى كالكلب .. وهو يسد فمه بكمه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين .. وألقى عليهم نظرات قلقة مضطربة .. وهمس فى أذنى :

ـ لعل سعالى لم يصل إليهم . أما أنت فمثل ابنى .. ولعلك تكتم عنى .. إنها بلية ، ابتلانى بها اللّه .. وهو لا يبلو إلا عباده الصالحين .. أسأله تعالى أن ينهى هذه الأزمة على خير حتى أنصرف عن هذا المجلس ..

فأخذتنى به شفقة .. ورأيته يلم أطراف عباءته ، ليسرع بالنهوض ، ولكن السعال أو العواء أدركه .. فلبث فى مكانه يحشو فمه بكمه .. حتى هدأ قليلا .. فقلت له :

ـ أما من علاج لهذا ؟ ..

- العلاج بيد الله .. وأخشى أن يكون قد فات أوانه .. كل ما أرجوه ألا يكون دائى خطرا على الناس .. كفى ما حدث لذلك الخادم المسكين .!

- ماذا حدث له ؟ ..

قلتها مرتاعا .. فقال بصوت مرتجف متعب جاف :

- اشتدت علىّ الأزمة يوما . وقيل إنى كنت أسعل سعالا كعواء ذلك الكلب « المسعور » الذى عضنى .. فلما أراد خادمى إسعافى ومعونتى هبرته بأسنانى وعضضته عضة أدت إلى وفاته .. رحمه اللّه رحمة واسعة ! ورحمنى أنا أيضا وغفر لى ..

وقطع سعاله حديثه .. وجعل يمزق كمه بأسنانه ، حتى لا يخرج الصوت من فمه واضحا .. وجعلت أنا أحاول التزحزح من مكانى مبتعدا عنه من الخوف .. ولكن احترامى له وعطفى عليه وحرصى على شعوره وخشيتى من لفت الأنظار إليه .. كل هذا سمرنى فى مقعدى .. فتجلدت وقلت له بصوت متهدج :

- إنها ولا شك أزمة خفيفة ستمر ..

ولم أتم .. فقد جحظت عيناه .. وتغير وجهه .. وأرغى وأزبد .. وكشر عن أنيابه ، وانقلب - فى لحظة - من ذلك الشيخ الوقور ، إلى كلب خطر عقور .. وترك كمه وفغر فاه بعواء سافر مرعب .. ومد يديه نحوى كأنهما مخالب .. وهم بالهجوم علـى .. وهنا لم أدر من الفزع إلا وأنا أثب نحو الباب وثبة ، صدمتنى بعارضته الخشبية صدمة ، ما برح أثرها باقيا فى

جبينى .. وما كدت أجد نفسى فى فناء الدار .. حتى صحت من حلاوة الروح بالخدم والحجاب :

ـ الحمد للّه ! هربت بجلدى .. لكن المصيبة هى مصيبة الباشا المدير وضيوفه .. لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم وانتهى الأمر ! ..

وأردت أن أدفع بالحجاب إلى داخل « المنظرة » لينقذوا من يمكن إنقاذه .. وإذا بى أرى الباشا المدير وضيوفه ، يتوسطهم «الشيخ» الجليل ، خارجين من الباب يتمايلون ، والضحك يكاد يقطعهم تقطيعا ..

فلما انكشفت لى الحقيقة وأبديت احتجاجى .. قال لى المدير باسما :

ـ ألا تعرف الشيخ « البلبيسى » ونوادره ودعاباته ؟! .. هذا هو الشيخ البلبيسى ... هل تعرفه الآن ؟

فأشرت إلى الصدمة فى جبهتى وقلت مبتسما :

ـ معرفة تركت فىّ أثرا ! ..

فتقدم نحوى « الشيخ » كما يتقدم الممثل بعد أن مسح عن وجهه طلاء التمثيل .. وقال :

ـ الحمد للّه على السلامة !. إن شاء اللّه قريبا ..

فقاطعته صائحا :

ـ مستحيل .. لا يلدغ ـ بل قل .. لا يعض ـ مؤمن ..

فبادر هو يكمل العبارة :

ـ من كلب مرتين ... هذا صحيح .. ولكن من قال لك أنى سأكون كلبا فى المرة القادمة ؟

ـ إذا قابلتني فى المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك ..

*　　*　　*

ولم أقابله بعدها أبدا .. إلى أن مات وذهبت أيامه .. ولم يعد لهذه المجالس و « المنادر » وجود .. وانقرض هذا النوع من الناس .. وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة الإنسانية ، كان لازما لإدخال الأنس على مجالس ذلك العهد .

إن لكل عصر رجال أنسه .. ولكن عصر « المنادر » كان له رجال قلما يجود بمثلهم الزمان ..

لا آسف على شيء أسفى على أنى لم أقابل « الشيخ البلبيسى » مرة أخرى . وإن كنت على ثقة من أنه كان سيترك فىّ مرة أخرى أثرا لا يمحى ..

إبليس ينتصر

اتخذ قوم شجرة ، صاروا يعبدونها .. فسمع بذلك ناسك مؤمن باللّـه ، فحمل فأسا وذهب إلى الشجرة ليقطعها .. فلم يكـد يقترب منها ، حتى ظهر له « إبليس » حائلا بينه وبين الشجرة ، وهو يصيح به :

ـ مكانك أيها الرجل !.. لماذا تريد قطعها ؟

ـ لأنها تضل الناس .

ـ وما شأنك بهم ؟ دعهم فى ضلالهم !..

ـ كيف أدعهم .. ومن واجبى أن أهديهم ..

ـ من واجبك أن تترك الناس أحرارا ، يفعلون ما يحبون .

ـ إنهم ليسوا أحرارا .. إنهم يصغون إلى وسوسة الشيطان ..

ـ أوتريد أن يصغوا إلى صوتك أنت ؟! ..

ـ أريد أن يصغوا إلى صوت اللّه ! ..

ـ لن أدعك تقطع هذه الشجرة ..

ـ لابد لى من أن أقطعها ..

فأمسك إبليس بخناق الناسك .. وقبض الناسك على قـرن الشيطان .. وتصارعا طويلا .. إلى أن انجلت المعركة عن انتصار الناسك .. فقـد طرح

الشيطان على الأرض وجلس على صدره وقال له :

ـ هل رأيت قوتى ! ..

فقال إبليس المهزوم بصوت مخنوق :

ـ ماكنت أحسبك بهذه القوة .. دعنى وافعل ما شئت .

فخلى الناسك سبيل الشيطان .. وكان الجهد الذى بذله فى المعركة قد نال منه .. فرجع إلى صومعته واستراح ليلته ..

فلما كان اليوم التالى حمل فأسه ، وذهب يريد قطع الشجرة ، وإذا إبليس يخرج له من خلفها صائحا :

ـ أعدت اليوم أيضا لقطعها !؟

ـ قلت لك لابد لى من أن أقطعها ..

ـ أو تظنك قادرا على أن تغلبنى اليوم أيضا ؟ ..

ـ سأظل أقاتلك حتى أعلى كلمة الحق ! ..

ـ أرنى إذن قدرتك ! ..

وأمسك بخناقه .. فأمسك الناسك بقرنه .. وتقاتلا وتصارعا .. إلى أن أسفرت الموقعة عن سقوط الشيطان تحت قدمى الناسك .. فجلس على صدره وقال له :

ـ ما قولك الآن فى قوتى !؟

ـ حقا .. إن قوتك لعجيبة .. دعنى وافعل ما تريد ..

لفظها الشيطان بصوته المتهدج المخنوق .. فأطلق الناسك سراحه .. وذهب إلى صومعته واستلقى من التعب والإعياء حتى مضى الليل وطلع

الصبح فحمل الفأس ، وذهب إلى الشجرة فبرز له إبليس صائحا فيه :

ـ ألن ترجع عن عزمك أيها الرجل !؟

ـ أبدا .. لابد من قطع دابر هذا الشر !..

ـ أتحسب أنى أتركك تفعل !؟

ـ إن نازلتنى فإنى سأغلبك ...

فتفكر إبليس لحظة .. ورأى أن النزال والقتال والمصارعة مع هذا الرجل لن تتيح له النصر عليه .. فليس أقوى من رجل يقاتل من أجل فكرة أو عقيدة ..

ما من باب يستطيع إبليس أن ينفذ منه إلى حصن هذا الرجل غير باب واحد : الحيلة ..

فتلطف للناسك وقال له بلهجة الناصح المشفق :

ـ أتعرف لماذا أعارضك فى قطع هذه الشجرة !؟ إنى ما أعارض إلا خشية عليك ورحمة بك .. فإنك بقطعها ستعرض نفسك لسخط الناس من عبادها .. مالك وهذه المتاعب تجلبها على نفسك ؟.. اترك قطعها وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك .. وتعيش فى أمن وطمأنينة وسلامة !..

ـ دينارين !؟

ـ نعم .. فى كل يوم .. تجدهما تحت وسادتك !

فأطرق الناسك مليا يفكر ، ثم رفع رأسه وقال لإبليس :

ـ ومن يضمن لى قيامك بالشرط !؟

ـ أعاهدك على ذلك .. وستعرف صدق عهدى ...

ـ سأجربك ..

ـ نعم .. جربنى ..

ـ اتفقنا .

ووضع إبليس يده في يد الناسك .. وتعاهدا .. وانصرف الناسك إلى صومعته وصار يستيقظ كل صباح ، ويمد يده ويدسها تحت وسادته فتخرج بدينارين .. حتى انصرم الشهر . وفى ذات صباح دس يده تحت الوسادة فخرجت فارغة .. لقد قطع إبليس عنه فيض الذهب .. فغضب الناسك .. ونهض فأخذ فأسه .. وذهب إلى قطع الشجرة .. فاعترضه إبليس فى الطريق ، وصاح فيه :

ـ مكانك ! .. إلى أين ؟ ..

ـ إلى الشجرة .. أقطعها !

فقهقه الشيطان ساخرا :

ـ تقطعها لأنى قطعت عنك الثمن ! ..

ـ بل لأزيل الغواية وأضىء مشعل الهداية ! ..

ـ أنت ؟! ..

ـ أتهزأ بى أيها اللعين ؟! ..

ـ لا تؤاخذنى ! .. منظرك يثير الضحك ! ..

ـ أنت الذى يقول هذا ، أيها الكاذب المخاتل ؟! .

* * *

وانقض الناسك على إبليس وقبض على قرنه .. وتصارعا لحظة .. وإذا المعركة تنجلى عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس .. فقد انتصر وجلس على صدر الناسك مزهوا مختالا يقول له :

ـ أين قوتك الآن أيها الرجل ؟! ..

فخرج من صدر الناسك المقهور صوت كالحشرجة يقول :

ـ أخبرنى كيف تغلبت أيها الشيطان ! ..

فقال له إبليس :

ـ لما غضبت للّه غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك .. لما قاتلت لعقيدتك صرعتنى ، ولما قاتلت لمنفعتك صرعتك !

ليلة الزفاف

انطلقت آخر « زغاريد » ذلك القران الميمون فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وزف « العروسان » إلى حجرتهما بعد أن رشا بالملح من عيون الحساد . وأغلق عليهما الباب وصارا وحدهما أخيرا .. وقد اجتازا الأعتاب نحو تلك اللحظة التى لم تخلق مثل كل اللحظات .. تلك اللحظة التى تشع كاللؤلؤة البهيجة في تاج الزمان .. زمان كل فرد على هذه الأرض .. من الملوك إلى الصعاليك . تلك اللحظة التى بذل فيها ما بذل . ومن أجلها احتشد المعارف والأصدقاء ، واحتفل الأهل والأقرباء ، ونصبت الموائد ، وقرعت الكئوس ، ولعب الفرح والأنس بالرءوس ، وحمى الرقص وارتفع الغناء ، وسبح الحاضرون وعاموا فى أويقات من الهناء ... جاءت تلك اللحظة ... قمة السهرة ، وقبة الحفلة ، ومحراب الليلة .. لحظة الخلوة بين العروسين . ويالها من لحظة !.. كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث فى رأسه عن أول كلمة يخاطب بها عروسه وقد صارا على انفراد . أيبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة .. أم كلمة عاطفية ؟. وكل زوجة تذكر ولا ريب إحساسها وهى تنتظر الكلمة الأولى من فم « عريسها » !

أما عروس الليلة فلم يبد عليها أنها تنتظر شيئا . فما كاد باب حجرة العرس يغلق ، حتى تركت « عريسها » واتجهت إلى منضدة الزينة ، وجلست ووضعت رأسها الجميل فى كفيها . ورأى « العريس » منها ذلك ، فأقبل عليها يقول :

ـ أمتعبة أنت يا عزيزتى ؟ صخب العرس أزعجك فيما أرى ! ..

فلم تجب . ولم ير العريس وجهها الذى تخفيه بيديها ، ولكنه لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفر من بين أصابعها ، وتسقط على ثوب عرسها الأبيض . فقال بصوت يتهدج حنانا :

ـ أتبكين ياسونة ؟!

فلم يسمع منها غير نشيج خافت . فتألم لها . إنه يعلم السبب ، إن سنية وحيدة أمها . وقد فقدت أباها منذ بضعة أعوام . فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التى كانت لها كل شىء ليس بالأمر اليسير . ولعل هذه الفكرة هى التى كانت تخيم عليها طول الحفلة .. لقد كانت مطرقة واجمة ذاهلة ، قليلة الكلام نادرة الابتسام فحدب عليها ، وألصق خده برأسها ، وقال لها :

ـ لا تبكى يا عزيزتى سونة . سأكون لك أما وأبا وزوجا وأخا .. ولن أجعلك تشعرين أبدا أنك فقدت شيئا أو فارقت أحدا ..

فأبعدت رأسها عن خده ، وأرادت أن تتكلم ، ولكن الدموع غلبتها .. فبادر هو يقول لها :

ـ لا تتكلمى ! إنى أعرف ما تريدين أن تقولى . أطلقى دموعك ولا تكتميها . هذا أمر طبيعى . لست أخشى إلا على عينيك الجميلتين ..

ولكن البكاء في مثل هذه الحال يجلو النفس ، وعما قليل تشعرين بالراحة ، ويشرق وجهك ، كأنه شمس تسطع بعد مطر خفيف لطيف ..

فاهتزت كأن في جوفها معركة .. ثم تشجعت وقالت والدمع في عينيها :

ـ أريد أن أصارحك بشيء .. هل تسمح لى ؟

ـ بالطبع ياسونتي .. بالطبع . صارحينى بكل ما في نفسك ، ألسنا الآن زوجين ؟ لا ينبغى أن يخفى أحدنا عن شريكه شيئا .

ـ نعم ، من واجبى أن أقول لك .. وأرجو ألا تتألم أو تغضب : إنى أحب شخصا آخر ...

لفظتها بسرعة وقوة ، ثم استخرطت في البكاء . ودوت هذه العبارة في أذن العريس كأنها قذيفة ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يحس ألما ولا غضبا .. بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله .. ولا بالوقت الذى مر قبل أن يتماسك ويثوب إلى رشده ، ويعى مدلول ما سمع .. وينظر فيما ينبغى أن يصنع ... وكان رجلا رزينا عاقلا في نحو السادسة والثلاثين ، علمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور . فسرعان ما ضبط نفسه ، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب المهذب :

ـ ألا ترين أن هذا التصريح جاء متأخرا بعض الوقت ؟ هل كان لديك مانع من الإفضاء به إلى في أيام الخطبة أو قبل إبرام العقد على الأقل ؟

ـ كان يجب أن يتم هذا القران إرضاء لأمى المسكينة . كنت أراها أتعس مخلوقات الأرض كلما حاولت إقناعها بفسخ خطبتنا لقد كان أملها

الوحيد ، وحلمهـا الدائـم أن ترانـى زوجـة رجـل مثلـك !..ولقـد خـانتنى شجاعتى فلم أجرؤ على صدمها فى آمالها .. وهى مسنة ضعيفـة مريضـة . إن اللّه يعلم كم جاهدت كـى أكتـم عـاطفتى وأخنـق حبـى ، وكـم أردت آخر الأمر أن أفهم نفسى أن الماضى قد انتهى بالزواج .. وقد خيـل إلى أن قلبى قد استجاب لنداء العقل ، لكنى الليلة ، وقد تم الأمر ، وأمسـى كـل شىء حقيقة .. سمعـت صرخـات قلبـى تهزنـى هـزا وتكـاد تهـدم كيـانى ، فأيقنت أنى لن أستطيع المضى فى خداع نفسـى . ولا يليـق بـى المضـى فـى خداعك ..

كانت تقول ذلك وهى تشهق ببكائها وتنشج .. وأطرق العريس وفكـر فيما أفضت به مليا .. ثم قال :

ـ تصرف سليم ، ولا غبار عليه . ثقى أنى من جانبى على أتم اسـتعداد لمعاونتك فيما يتجه إليه عزمك . الحق معك .. لا يجب أن تخدعى نفسك . استمعى إلى صوت قلبك . ومـا دام حبـك صادقـا .. فليـس لأحـد عليـك سبيل . إنى أضع حريتك بين يديك منذ الآن ، وأضع نفسى فى خدمتـك ، فلنتدبر الأمر معا .. كيف نخرج من هذا الموقف أولا ؟. هبـى أنـى طلقتـك الليلة ، ما الذى سيحصل ؟ ستكون فضيحـة لـن أرضاهـا لـك ، ومصـدرا للأقاويل والإشاعات حولك لن ينضب .. ثم هى صدمة قاسـية لوالدتـك . وأنت التى أشفقت عليها من صدمـة أخـف وأهـون !.. إذن مـاذا نصنـع ؟ فكرى معى قليلا ..

ـ أصبت ... إن طلاقى الليلة فضيحة .

ـ فلنبحث عن حل غير هذا ... ابحثي جيدا ...

ـ هأنذى أبحث ..

وجلس كل منهما يفكر ، وقد جعل رأسه بين كفيه .. وأخيرا نهض العريس صائحا :

ـ وجدت حلا ، ربما كان فيه الخير ، ولكنه يتطلب منك بعض الصبر ، ومنى بعض القدرة على التمثيل .. ذلك أن أطلقك بعد شهر أو شهرين ، وفى هذه الفترة أتظاهر أمام الناس ، وعلى الأخص أمام والدتك ، أنى فظ الخلق شرس الطباع وأنى أسيء معاملتك ... بهذا نعدها إعدادا رفيقا لتحمل يمين الطلاق .. بل قد ينفد صبرها هى فتحثك قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال ، فإذا تم ذلك رأت بعدئذ حلمها ومحط أملها فى ذلك الذى اختاره قلبك ... ما رأيك فى هذا الحل ؟

ـ مدهش !..

لفظتها وهى تريد أن تكفكف دمعها و « تنف » فلم تجد غير طرف ثوبها .. فأسرع العريس قائلا قبل أن تتمخط فيه :

ـ انتظرى .. انتظرى .. خذى منديلي ، ولا توسخى ثوب عرسك ، حافظى عليه للقران الآخر !..

فتناولت منديله وهى تقول :

ـ إنك رجل نبيل .. إنى آسفة . ماذنبك أنت حتى أعكر عليك صفو هذه الليلة ؟ وماذا جنيت أنت حتى تفجع هكذا فى عروسك ؟ ... ولعلك علقت آمالا كبارا على هذا الزواج ..

فأطرق لحظة .. ثم قال كالمخاطب نفسه :

ـ لا تذكريني .. أقصد .. لا تعلقي على هذا الأمر أهمية .

ـ إني متألمة لك ...

ـ لا تتألمي لي .. إني بخير .. إنك على كل حال لست مسئولة عما وقع لي .. حظي هكذا .. حقيقة لقد وضعت في هذا الزواج أملي ، لأني كنت دائما رجلا شحيحا بعواطفه ضنينا بفؤاده . استغرقتني حياة العمل ، فلم أعرف من حياة اللهو إلا القليل ، ولم أعط امرأة من نفسي شيئا نفيسا ... ادخرت كل ما في قلبي من حب للزوجة التي هي نصيبي . كنت أتخيلها في أوقات فراغي وهي إلى جانبي ، وأتخيل ما أناجيها به من حدب وعطف وحب وحنان ، كدسته كدنانير البخيل على مر الأعوام من أجلها .. ولكن القدر أراد أن يصيبني فيما كنزت كما يصيب أحيانا البخلاء فيما يكنزون .. لأنه يحلو له السخرية ممن يركزون همهم في هدف . فيتربص بهم حتى يقتربوا منه ، فيعبث به بطرف أصبعه ، فإذا جهودهم هباء ..

ـ كل ذلك بسببي .. أنا مجرمة ..

ـ لا .. مطلقا .. لا شأن لك بالأمر .. إن مثلي مثل ذلك الذي ظل يجمع المال ويدخره ليشتري به عينا ، فلما تم له ذلك واشترى العين وجدها محجوزا عليها أو مرهونة لآخر رهنا عقاريا ممتازا لا فكاك منه .. فما ذنب العين في هذه الحال ؟ الذنب ذنب الادخار .. والبخل .. وليتني جعلت شعاري : « انفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب » ! ..

- إن كلامك يحز فى نفسى كسكين ... لست أدرى ماذا فى إمكانى أن أصنع لك .. من يدرى ؟ ربما عوضك القدر عنى خيرا ... وجاءك الغيب بزوجة أحلامك ... إنى لم أكن بك جديرة ...

- هذا لطف منك ياسو .. ياسنية .. سنية هانم .. اعذرينى . لم أعد أدرى كيف أناديك ...

- عجبا .. نادنى كما كنت تنادينى منذ لحظة ...

- أمام والدتك بالطبع .. أما ونحن وحدنا .. فلا حق لى ..

- لماذا ؟

- لم يعد لى حق تدليلك ... أنت منذ الآن - كما قلت لك - أجنبية عنى ، ولا أدرى ماذا نصنع الآن ، ووالدتك فى البيت ، ولابد لنا من المكث فى حجرة واحدة ... اسمعى : أنت لك السرير ، وأنا لى الأرض .. هاهنا بجوار الباب فى ذلك الركن البعيد .. هيا انهضى إلى فراشك .. أنت فى أشد الحاجة إلى الراحة الليلة ، بعد كل هذه الأحداث المثيرة لأعصابك .

- تنام على الأرض ؟!

- لا يوجد وضع آخر .

- هذا صحيح ، مع الأسف ، ولكن سامحنى .. أرجوك .. أهكذا أجعل ليلة عرسك على هذه الصورة غير البهيجة !

- ما لها ليلة عرسى ! إنى راض بها . هل يتاح لكل عريس مثلها ؟ ثقى أنه سيظل لها دائما فى نفسى ذكرى عزيزة ..

- إنك تريد أن تنفى عنى كل مسئولية .. على كل حال الوقت الآن غير مناسب لمجادلتك .. فلأعد لك مكانا مريحا لمبيتك .. فأنت الذى أنهكتك ولا شك هذه المفاجأة غير السارة .. أرى فوق السرير «مرتبتين» فلأفرش واحدة منهما على الأرض .. وليكن توزيع المكانين بيننا بالقرعة .. ما رأيك ؟..

قال لها مبتسما :

- موافق . إنى مطمئن إلى سوء حظى .

ونهضت من فورها .. ونهض هو .. فتعاونا على نقل إحدى حشيتى السرير إلى ركن من أركان الحجرة .. وأخذت هى فى وضع الوسائد وتهيئة ذلك الفراش الأرضى ، حتى فرغت منه ، فطلبت إليه عملة من ذات القرش ، واتفقا على أن الذى يخرج له الوجه ذو الصورة يظفر بالسرير .. ورمت بالقطعة النقدية فى الفضاء ، فإذا هى الظافرة .. فقال لها :

- ألم أقل لك أنى أعرف بختى ؟!

- إنى أخطأت الرمى ، فلنعد القرعة من جديد ...

- لا .. لا .. من فضلك .. حافظى على مبدئك : الصراحة والصدق وعدم الخداع .. لقد كسبت أنت وخسرت أنا .. فلا محل للمراوغة ولا لزوم « للحمرأة » !

فقبلت على مضض ... وخرج من الحجرة إلى أن خلعت ملابسها واندست فى سريرها ، فعاد وخلع ملابسه وأوى إلى فراشه ... ومدت ذراعها البضة المرمرية إلى زر المصباح بقربها وهى تقول مستأذنة :

ـ هل أطفئ النور ؟

ـ إذا شئت .. وأتمنى لك نوما هنيئا .. ومستقبلا سعيدا مع من اختاره قلبك .. وإني واثق من أنك أحسنت الاختيار .. ولو أنك لم تحدثيني عنه ..

ـ إنه ضابط .. ملازم أول ..

ـ وشاب جميل بالطبع ، ويصغرني بعشر سنوات على الأقل فلا جدوى في منافسة .. ولا أمل في مقاومة ..

لفظها هامسا وهو يخاطب نفسه ، فسألته :

ـ ماذا تقول ؟

ـ لا شيء .. أطفئي النور .. تصبحي على خير ..

* * *

مرت الأيام والزوج يمثل الدور المتفق عليه خير تمثيل ، ويشعر حماته برفق أنه ليس الزوج المثالي الذى كانت تتمناه لوحيدتها .. غير أن المشكلة التى استعصت عليه هى مسألة الحجرة المشتركة . إن هذه الحال بينه وبين زوجته « المزيفة » لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع .. إنه لا يستطيع النوم وهى معه فى غرفة واحدة ، هكذا كأنهما غريبان ، وبينهما حيوان شهوان ، بالحرمان يزأر وبالرغبة يجأر ... إنه يحس كأن أنفاسها الحارة تلفح وجهه .. كل حركة منها تطرد النعاس من أجفانه ، إذا سعلت نهض يجرد نفسه من غطائه ليدثرها به .. وإذا نفذ شعاع القمر من النافذة ، قام على أصابعه يتأمل وجهها البديع السابح فى ضوئه ، ثم يسدل بعد ذلك الأستار ، حتى لا يزعجها النور . وإذا تقلبت على أحد جنبيها تقلب هو أيضا . وإذا

نهضت بالليل لحاجة ، تصنع النوم العميق وكتم أنفاسه المضطربة ، حتى لا تعلم أنه يقظان . إنها فتنة دائمة نائمة فوق سرير .. ولكنها مستيقظة ثائرة ساهرة في جوفه ... كل شيء منها يقض مضجعه . ويحطم أعصابه وإرادته ويجعله يضطرب في فراشه كأنه ريشة : رائحة جسدها في أنفه ، وتنهداتها اللطيفة في النوم ، وشخيرها الخفيف الهامس المتقطع ، وطريقتها العجيبة في نومها ، وهي منبطحة على وجهها ، بشعرها المتدلى ونحرها العارى ووسادتها التي تضغطها وتضمها في حضنها .. إنه لعذاب لا يستطيع أن يتحمله رجل من لحم ودم .. إنه تحمل ذلك ليلة وليلتين وثلاثا وأربع .. وكاد ينقضي الأسبوع .. ولكن المضي في ذلك لفوق الطاقة والاحتمال .. كيف يصنع ؟ والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه ثم حجرة أخرى تشغلها حماته ، أيبيت في قاعة الطعام ؟ وما عسى أن يقول الخدم والحماة في هذا التصرف من عريس ؟ وحماته لن تفارقهما أبدا . إذ ليس لها غير ابنتها ملاذ .. لم ير إلا أن يصبر صبرا جميلا ، وأن يسرع في إنهاء مهمته . وجعل يشتد يوما بعد يوم في إظهار غلظ طباعه .. وحماته تتغاضى حرصا على هناء ابنتها . وابنتها لم تكن متقنة لتمثيل دورها .. فما كان يبدو عليها غضب من طباع زوجها « الموهومة » . ذلك أنها كانت تعلم أنه إذا خلا بها في الليل جعل يعتذر لها عن إساءات النهار .. وانتهى بها الأمر أن صارت تسر لهذا اللون من التمثيل كأنها طفلة وتكاد تضحك بدل أن تغضب .. وهو يغمزها بعينه ، ويحثها على التظاهر بالتقطيب .. بل كانت تغلط أحيانا وتدافع عنه أمام

أمها أو الزائرين إذا وجه إلى طبعه نقد .. فتفلت من بين شفتيها كلمة «والله مظلوم ! »

إلى أن جاء يوم خطر فيه للزوج خاطر وجد فيه العلاج لسهاد الليل . ذلك أن يلجأ إلى منزل صديق قديم عزب ، يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء . وأخبر حماته وزوجته أن أعمالا طرأت ترغمه على هذه الغيبة .. وصار لا يعود إلا فى العاشرة . وأحيانا فى منتصف الليل . ولا ضير عليه فى ذلك ، فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج التمثيل لدوره البغيض .

وعاد ذات ليلة فى الثانية صباحا .. فقد دعى إلى عيد ميلاد صديق ، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح . فرأى لدهشته ، زوجته تستقبله فى سريرها مستيقظة مقطبة .. لا تقطيب تمثيل .. بل تقطيب غضب حقيقى . فلما أبدى لها العذر وبين لها السبب . سكتت غير مقتنعة ولا راضية ..

ومرت أسابيع ، فإذا هى تطلب إليه يوما أن يذهب بها إلى السينما .. ورأى حماته تحبذ الفكرة قائلة :

ــ نعم .. اذهب يا ابنى بعروسك وتنزها معا كما يفعل كل «العرسان»!

فرأى من واجبه أن يكون فظا سيئ الأدب فقال :

ــ ما كان ينقصنى إلا هذا : أنا أخرج مع بنتك إلى السينما ؟!

ــ وما المانع ؟ أليست ظريفة جميلة ؟ إنها عروس تشرف أحسن عريس!

- هذا رأيك أنت وحدك ..

- عيب يا ابنى .

- على كل حال ، ليس عندى وقت أضيعه فى نزهة بنتك .

وهنا احمر وجه الزوجة غضبا وقالت :

- وعندك وقت تضيعه فى السهر لما بعد منتصف الليل ؟!

- هذا شأنى .

- لن أخرج معك فى حياتى .. أبدا .. أبدا ..

وتركته وانصرفت مسرعة إلى حجرتها .. وأطرقت الحماة أسفا وألما .. أما هو فقد خرج إلى شأنه ، كما اعتاد أن يصنع فى كل يوم .. ولم يعلق بنفسه شيء مما حدث ، كالممثل بعد تركه خشبة المسرح ، وقد ضرب عليها وطعن وجرح .. وعاد فى المساء فوجد زوجته فى سريرها ، ووجهها فى وسادتها وقد بللتها بدموعها .. ولم تتحرك لدخوله .. وحسبها هو نائمة ، لولا شهيق خافت ، ونشيج غير مرتفع نبهه .. فذهب إليها يقول :

- مالك ؟ مالك ؟

فرفعت رأسها من فوق الوسادة ، والتفتت إليه وخيوط العبرات تلمع على خدها .. ولم تجب .. فقال لها بحنان :

- لم أرك تبكين هكذا منذ زمن بعيد .. أهو أيضا ؟

- من هو ؟

- الملازم ..

- أى ملازم ؟ آه ..

لفظتها مستدركة ، ثم قالت سريعا بنبرة عتاب مرة :

ـ لا .. لا تحاول التهرب من إساءتك .. بل إساءاتك المتكررة .. إنى لا أستطيع أن أحتمل منك أكثر مما تحملت .. هذا كثير علىّ .. ما من امرأة تتحمل هذا من رجل !

ـ ماذا فعلت يا ناس ؟

ـ أتنكر أنك آلمتنى اليوم ؟

ـ تمثيل طبعا ...

ـ هذه حجة بالية .. إنك الآن صرت تجعل من هذا التمثيل ستارا تخفى وراءه كرهك لى ..

ـ سبحان اللّه !

ـ إنك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتى أطول وقت مستطاع . أتنكر ذلك ؟ إنك تنصرف مبكرا فى الصباح وأنا نائمة ولا تعود إلا فى الغداء .. ثم تخرج فلا أراك إلا فى العاشرة أو الحادية عشرة أو منتصف الليل .. إنى أسألك وأسأل نفسى : ماذا فى وجهى ينفرك أو فى شخصى يبعدك ؟ ..

ـ أهذا معقول ؟

ـ أتقسم أنك لا تنفر منى ؟

ـ أقسم أن هذا لم يخطر لى على بال .

ـ لقد كنت ظريفا معى فى أول عهدنا .. شديد العطف على .. كثير الحنان ..

ـ وأنا الآن كما كنت .. لم أتغير .

ـ نعم .. أحيانا ونحن وحدنا فى هـذه الحجـرة تتلطـف معـى ، ولكنـك أمام الناس ..

ـ بالطبع .. أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف .. طبقا للخطة .

ـ أى خطة ! .. أتعرف أنها أمست لعبة سمجة !؟

ـ ولكن ! .. هذا لابد منه ..

ـ كان يسرنى تمثيلك أول الأمر . ولكنى الآن أراك جادا فيـه ، ويبـدو لى كأنه حقيقة .

ـ كثرة الممارسة تعلم الإتقان .

ـ كنت أفضل ألا تتقن هذا الدور .. حتى لا يخالجنى شك .. كل كلمة منك الآن تطعننى حقيقة ، وتدمينى .. يجب أن تحذر قليـلا .. لم يعـد الأمـر فى نظرى تمثيلا .. لقد اختفت كل لفظة رقيقة .. لماذا لا يمتد إتقـان دورك أيضا إلى ما يسرنى ؟ كنت تقـول لى أمـام والدتـى « ياسـونة » وأحيانـا .. يا « سونتى » ماذا حدث ؟ لماذا لا أسمع هذا النداء منك اليوم ؟

ـ حصل تغيير فى الخطة . نظرا لضيق الوقت ..

ـ ضيق الوقت ؟

ـ ألا تعرفين ؟ نحن اليـوم فـى آخـر أسـبوعنا السـابع .. ولم يبـق أمامنـا سوى بضعة أيام لنفترق ..

ـ بهذه السرعة ؟ أواثق أنك لم تخطئ ؟

ـ اطمئنى ! إنى لا أغلط فى الحساب .. وكل يوم يمر أعده بكل دقة ..

ـ تعد الأيام لتعتق رقبتك !

ـ أنا ؟!

ـ لم يبق إذن سوى بضعة أيام لنفترق ! .. ما أشد سرورك ! .. حدثنى ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم ؟ وأين ستسكن ؟ ..

ـ لا أدرى . لم أضع بعد برنامجا لحياتى المستقبلة .

ـ كم أتمنى أن تكون سعيدا فى حياتك المستقبلة . ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامى معك ؟

ـ بالخير طبعا .

ـ وهل سيكون شخصى عزيزا عليك ! ..

ـ دائما ..

ـ أشكرك ..

ـ نامى الآن هادئة البال .. لقد تأخرت عن موعد نومك ..

وجذب الأغطية ، وغطاها جيدا ، ومست كفه وجهها عفوا ، فمرغت خدها فى يده ، كأنها قطة تتمسح فى صاحبها وأحس دفء ذلك الخد المخملى الأسيل ، فسحب يده برفق .. وأطفأ النور فى سكون ، وذهب إلى فراشه صامتا ..

* * *

مرت الأيام الباقية مرا سريعا ، فى جو عجيب رهيب . فهى قليلة الكلام نادرة الابتسام ، بادية الكآبة . وكأن على وجهها من الحزن المكتوم سحابة .. تجيبه إذا تحدث بنظرة فيها أشياء ، يفهمها ويعلمها ويهتز لها فى

أعماقه كأنها قصيدة بليغة . وقد شقت عليه مهمته ، فجعل يتحامل على نفسه ليستطيع أن يمعن فى إساءته لها أمام والدتها ..

وتهيأت أخيرا الظروف التى يستطاع فيها إصدار ذلك القرار الحاسم ، دون أن تتأثر الأم كثيرا أو تخدش سمعة الزوجة .

جاءت الليلة الأخيرة . فتعمد الزوج أن يعود فى الهزيع الأخير من الليل ، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم ، ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها ، وضوء المصباح على وجهها الشاحب ، وكأنها تشخص ببصرها إلى السقف .. فقال لها :

ـ عجبا ! .. ألم تنعسى بعد !

ـ كنت أنتظر عودتك .

ـ لو كنت أعلم ذلك لجئتك مبدرا .

ـ إنك تعلم ذلك .

ـ ما هذه اللهجة المكتئبة والوجه الحزين ؟

ـ ليس هناك ما يدعونى إلى الفرح والاغتباط .

ـ على النقيض .. كان يجب الليلة أن تكونى مسرورة مرحة . غدا تكونين حرة ، وتستطيعين الزواج ممن تحبين .

ـ إنك تعبر عن إحساسك أنت .

ـ لا شأن لك بإحساسى من فضلك ، إنى منذ خلوت بك فى هذه الحجرة ، فى ليلتنا الأولى ، وأنا لا أهتم إلا بشعورك أنت وحدك وموقفك ومشكلتك وقد عاهدتك على ذلك .. وأظن أنى قد بررت بالوعد !

ـ نعم . لقد كنت رجلا شريفا .

ـ الحمد لله .

ووقع بينهما صمت عميق ... واضطربت فى شفتيها كلمات ، لم تجرؤ على إخراجها .. وأخيرا تشجعت وقالت :

ـ إذن أزفت الساعة ..

ـ أعتقد ذلك ..

ـ هل .. هل تحب أن تعرف شعورى الآن .. أو ترى من مصلحتك أن تتجاهله ؟ .. ثق أنه يشق على نفسى إحراجك .. أظن من الخير لك أن أسحب كلامى ، ولا أسألك شيئا . وليكن ما فى قلبى مكتوما . ولا يجب أن أطمع فى نبلك أكثر من ذلك ..

ـ أفصحى وكونى صريحة دائما .

ـ إذا طلقتنى فإنى أموت .

قالتها سريعا ، وأخفت وجهها فى كفيها . ولم يكن فى صدقها خلجة شك . وكان صوتها صوت الصدق نفسه لو أنه أعطى لسانا . فجلس زوجها على حافة سريرها ، وأمسك بيدها وقال :

ـ اسمعى يا .. سنية ! من الصعب علىّ أن أنسى أنك أحببت شخصا آخر ، ذلك الحب الذى رأيت بعينى آثاره فى وجهك ليلة عرسى !

ـ أعلم أنك لن تغفر لى ذلك . وأحب أن تعاقبنى العقاب الذى تراه ، ولكنى أرجوك أن تصدقنى إذا قلت لك أن عواطفى نحو ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعد ما هو الحب !

- إنى لا أكذبك مطلقا .. غير أنى واثق أنك تقدرين موقفى ..

- نعم ، أقدر موقفك .. وأدرك ما يجول بخاطرك .. وأعرف السؤال الذى يمنعك أدبك من أن تسألنى إياه . ولكن أقسم لك أنه لم تكن بينى وبين ذلك الشخص علاقة تخجل أو صلة تشين .. كل ما فى الأمر أنه كان جارنا يوم كنا نقطن فى حى « العباسية » وكنت ككل فتاة يبهرها ذلك الزى العسكرى والقوام الممشوق ، وكان يحيينى وأحييه كلما تقابلنا فى الطريق ، وكان يحادثنى فى التليفون ولكنى لم أخرج معه قط ، ولم نجتمع على انفراد .. أؤكد لك ذلك وأحلف بكل يمين ، وسيأتى الوقت الذى تتحقق فيه من صدق قولى .

- إنى أرى الصدق فى عينيك . وهذا يكفينى . ولكنى أخاف من أمر آخر .. حقيقة شعورك نحوى .. هل أنت واثقة ؟ ..

- كل الثقة .

- كيف تقطعين بذلك ؟

- إنك ترتاب ، لأنك لا تعرف الحب . ولكنى أخبرك ما هو .. إنه ليس فى تلك البهرة العاجلة التى تخطف أبصارنا ، ولا الهزة المفاجئة التى ترج قلوبنا .. ولكنه شىء يتكون على مهل كالجنين . إنه ينسج فتلة فتلة ، ويربط عقدة عقدة ، كشغل « التريكو » .. هكذا يتوثق الرباط بين قلبين .. مهما تشك فى قولى .. فإنى لن أستطيع التخلى أبدا عنك .. إنك ضرورى لى .. بكل حسناتك وسيئاتك ... إنك لازم لى ، بمجرد وجودك فى هذه الحجرة .. أسمع سعالك ، ويؤرقنى غيابك .. وتسرنى عودتك ،

ولو بعد منتصف الليل ، ويضحكني بحثك في الصباح عن جواربك تحت السجاجيد وعن حذائك تحت الأمتعة ، ووجهك الملطخ بالصابون وأنت تحلق .. وجرحك لوجهك بالموسى ، ونسيانك منديلك قبل خروجك .. واعتمادك عليّ لأذكرك بمحفظتك الملقاة على منضدتي .. وابتسامتك الساذجة اللذيذة ، وأنا أتمطى في الصباح وأتثاءب ، وغضبك المفتعل وصياحك التمثيلي .. أمام والدتي ، وكلامك لي عن عملك كأني أفهم دقائقه . ثم تذكرك فجأة أني لست حقيقة لك فتبدى معي التكلف .. ثم تنسى فتتبسط وتدللني وتلاطفني .. وتطرى ثوبي الجديد ، ثم عاداتك في الطعام عرفتها وتعلمتها .. فالخبز يجب أن يسخن ويحمر ، والأرز يؤكل مع الخضر .. حتى نومك .. عرفت في أي ساعة من الليل تكون على جنبك الأيسر .. كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا ؟ .. تلك تفاهات صغيرة ، ولكنها هي الحلقات الدقيقة الوثيقة في « تريكو » الحب الزوجي ..

ـ « تريكو » ! .. يا له من تعبير ! لا تنس الإبرة الطويلة من فضلك ! إنها خطرة ، وهي في يدك أنت !

فضحكت ضحكة رقيقة .. ثم قالت بنبرة جد :

ـ لا تخش شيئا مني أبدا ...

فأطرق مليا .. ثم رفع رأسه وقال :

ـ سونه .. دعي لي وقتا للتفكير !

ـ لم أسمع منك لفظ «سونه» منذ دهور ! .. لم كل هذا الخوف مني ؟..

- ليس منك . ولكن على كنوزى . كنوز البخيل التى ادخرهـا فـى قلبـه .. نامى ياسونه الآن .. وفى الصباح نفكر وقد يـأتى الفـرج .. وغطاهـا كمـا اعتاد أن يفعل ، وأطفأ النور وذهب إلى فراشه الأرضى فى ركن الحجرة ..

ولم يكد يأوى إليه ، ويسحب غطاءه عليه ، حتى سمع صوت سونة تثب من سريرها .. وإذا هى قد دلفـت إلى فراشـه ، واندسـت تحـت الغطـاء إلى جواره والتصقت به والتحمت بجسده وهى تقول :

- أنت زوجى أمام الله والناس وقلبى ، ولن تفلت من بين ذراعى أبدا .

وطوقته وضمته .. وإذا هو يجد نفسه فى مكان الوسـادة التـى اعتـادت أن تحتضنها ليلا ..

وكانت تلك هى ليلـة عرسـهما ، ولعلهـا أول مـرة فـى تـاريخ الـزواج يهجر فيها العروسان سرير الزفاف ، ليفترشا الأرض متعانقين ...

طريد الفردوس

ـ سنذهب إلى الفردوس ...

ـ بعد عمر طويل .. إن شاء اللّه !

ـ الآن ...

قالها صاحبى المرح ، وهو يدخل بى ذلك المساء حانة من حانات القاهرة ، كتب على بابها بلون أخضر « بار الفردوس » .

وأجلسنى من الفور وجلس إلى مائدة ، يبدو أنها محجوزة له ، موقوفة عليه .. وأدار بصره فى المكان وحيا بنظرة صاحب البار وإخوانه ، وبابتسامة حور الحان وولدانه .. وصفق طالبا الشراب وهو يتلو :

ـ قال اللّه تعالى : وما الحياة الدنيا إلا متاع ...

ـ أكمل الآية من فضلك ...

ـ لم يتسع فؤادى لأكثر من هذه الجملة ...

وأقبل الساقى بالأقداح ، وأراد صاحبى أن يقدم إلىّ قدحا ، فقلت له :

ـ ذنوبى قد فاضت بها كأسى فلا حاجة بى أن أزيد عليها قدح خمر .. إذا أردت أن تكرمنى فاطلب لى عشاء ! ..

فأذعن لرغبتى ... وطلب لى الطعام ، فطفقت ألتهم ، وجعل هو

يرشف من كأسه .. ويقول :

ـ يعجبني أن يعرف الإنسان أن له ذنوبا ... إذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا ... وإذا عرفنا حدودنا لزمناها وأبينا أن نتعداها .. وهأنتذا قد رفضت أن تتعدى حدودك ! .. سأقص عليك قصة ثق أنها ليست من وحي شرابي ، لقد وقعت بالفعل وفي هذا المكان بالذات ... وإذا لم تصدقني فسل كل هؤلاء الحاضرين .. ولكنك تعرف أني لم أكذب عليك يوما ..

فلم يستطع فمي المملوء بالطعام أن يجيب ... فاكتفيت بهز رأسي علامة المصادقة .. فمضى الصديق يروى قصته :

ـ لست أذكر هل سبق لى أن حدثتك عن ذلك الشيخ الصالح الذى يتبرك به أهل بلدنا في الريف ، الشيخ عليش .. رجل ولد بعينين في رأسه ، ولكنه لم ير بهما غير السماء .. ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه ، وضعوه في إناء من زجاج وختموا عليه ، حتى لا ينفذ إليه هواء البشر ، ولا تتسل إليه جرثومة من جراثيم الشر .. رجل لا يعرف ما هو الذنب ، ولا السيئة ولا الزلة ولا المعصية .. ما كنا نبصره إلا ساجدا أو هائما في ملكوت اللّه ، لا يفطن إلى نفسه ولا إلى من حوله ... ولا يفرق بين الناس والهوام ... لم يؤذ إنسانا ولا بعوضة ، ولا يملك من دنياه غير مسبحة من حصى ، وغير موسى يحلق بها شعر رأسه ، وغير عمامته العتيقة ، وأطماره المهملة ، ولحيته المرسلة ... هكذا عاش ، يأكل من عشب الأرض أحيانا كأنه دابة ، ويقضم ما يلقى في حجره أحيانا من كسرات المحسنين على

غفلة منه أو سهوة ، فهو لا يسأل أحدا شيئا .. ولا يطلب إلى الدنيا متاعا ... إلى أن مات الشيخ ذات يوم ولم يبلغ الأربعين .. وكنت بالمصادفة فى الريف ، وأبصرته بعينى مع غيرى من الناس ، وهو ملقى فى مكانه ، مسجى على الغبراء ، وقد طرحت عنه عمامته فبدا رأسه الحليق ، كالصخرة اللامعة الملساء ، وسقطت إلى جانبه المسبحة ، وظهرت من حزامه يد الموسى ... وسكنت حركة لحيته التى ما كانت تهتز إلا لذكر اللّه ... وهبطت على الناس رحمة به ، فأجمعوا على أن يبنوا عليه ضريحا ... وما تركت الريف حتى كان الضريح قائما على جثمان الشيخ عليش ، وقد أسهمت بنصيبى فى إقامته ، وقلبى جياش بالتأثر ، ونفسى فياضة بالخشوع ... وعدت إلى القاهرة ، وعاد إلىّ ضعفى ، قاتله اللّه ... وجذبتنى قدماى إلى مكانى المألوف من هذه الحانة .. فما نحن إلا بشر ، لم يكتب لنا السمو على أنفسنا غير لحظات .. ومرت أيام ... وإذا بى أسمع جلبة من مكانى هذا ، فاستدرت فأبصرت على هذه المائدة من خلفى شيخا رث الهيئة ، قد أحاط به خدم المحل ، يحاورونه ويحرجونه ويفهمونه أن الموضع ليس موضعه ، وأن من الخير له أن ينصرف بالحسنى ، فتتبعت المحاورة ، ثم سددت إلى الشيخ البصر .. ويا لهول ما رأيت ! .. كلا .. إنه ليس الوهم ولا السكر ولا الجنون .. بل هو الشيخ عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامته وأسماله ومسبحته وموساه ... وفركت عينى وطلبت فنجانا من قهوة ثقيلة أستعين بها على اليقظة .. ثم سألت صاحب الحانة أن يمتحن عقلى . وطلبت إلى غانية من حسان المكان أن تفحص صحوى ، فنظرا إلى

بريبة أول الأمر ، ولكنهما خضعا لإصرارى ، ولم أتركهما حتى أقرا واعترفا أنى ثائب إلى رشدى ، مالك لصوابى .. فتقدمت إلى الشيخ ، ونحيت عنه الخدم ، وقلت له بصوت متهدج :

ـ ما اسمك أيها الشيخ ؟ ..

فما راعنى إلا قوله ، بجد وصراحة وثبات :

ـ عليش !

وكان الصوت صوته ، والنبرة نبرته ، فكدت أجن ، ومضيت أستفسر منه :

ـ الشيخ عليش من بلدة ..

فذكر لى اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع فى نفسى ذرة من شك ..

ـ ساكن الضريح الذى أسهمت فى ..

ـ نعم ..

ـ وكيف تركت ضريحك وجئت هاهنا ؟ .. لقد أبصرتك بعينى رأسى وأنت ميت ..

ـ نعم .. لقد مت حقا .. وأردت أن أدخل الفردوس ولكنهم طردونى ! ..

ـ الفردوس ؟! .. أيمكن أن يغلط الإنسان إلى هذا الحد ؟ ألا تستطيع أيها الشيخ الورع أن تفرق بين الفردوس الذى فى السماء ، و « بار » الفردوس الذى فى شارع عماد الدين ؟!

ـ لا .. لم يحصل منى غلط ! لقد صعدت فعلا إلى السماء ، وطرقت باب الجنة ، فمنعنى حارسها من الدخول ، وأعلن إلىّ أنى لست من أهلها ، ونصح لى أن أطرق باب النار ، فصدعت بالأمر دهشا حزينا وطرقت باب النار ، فمنعنى حارسها أيضا من الدخول ، وأعلن إلىّ أنى لست كذلك من أهلها .. فحرت فى أمرى ، وصحت شاكيا سائلا الهداية ، طالبا البت فى مصيرى ، وأخيرا قالوا لى : ليس فى السماء موضع أوضع فيه .. لأن الدنيا معركة بين الخير والشر ، ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقوم فى نفس الإنسان ، فإذا انتصر الخير دخل الإنسان مملكة الخير وهى الفردوس ، وإذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهى الجحيم .. أما أنا فلم تقم فى نفسى معركة ، ولم يحدث انتصار ، ولم أواجه الشر لأغالبه .. فأنا فى نظرهم كالفار من الميدان ، أو الهارب من الامتحان ، فكيف يجوز لهم أن يثيبونى أو يعاقبونى ، وأنا لم أعرض نفسى لأحداث الحياة ، حتى يظهر معدنها الخير من معدنها الشرير ؟ .. إنى فى نظرهم غشاش مخادع ، لجأ إلى أيسر السبل لينال الجائزة دون أن يواجه الخطر ! .. وانتهى أمرهم إلى إعلان هذا القرار فى أمرى : وهو إلغاء حياتى الأولى واعتبارها كأن لم تكن ، وطردى من السماء ، لأعيش مرة أخرى على الأرض ، بنفس جسمى وروحى وكيانى الأول ، على أن أتقدم للامتحان العسير وأواجه الشر وأنازل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمرى ما ظهر وما استتر .. وألقوا بى إلى الدنيا من جديد بعين ثيابى وهيئتى ، فوقعت على القاهرة ، وأنا لم أزل فريسة حزنى ويأسى من ضياع جنتى ، أردد كالمجنون عن غير وعى :

« الفردوس ... الفردوس !. » فدفعنى أحد المارة إلى هذا المكان قائلا لى : « ها هو ذا الفردوس ! . » فدخلت ، وإذا بى أجد فيه أيضا مـن يطردنـى منه .. حتى أنقذتنى أنت أيها الرجل الطيب ..

عجبت لقصة الشيخ ، وأخذتنى به شفقة .. وقلت له :

ـ لا عليك أيها الشيخ المبروك . ما حدث لك لا يحـدث لأى إنسـان . إنما هى كرامة من كرامات أولياء اللّه .. أن يسمح لبشـر أن يعيـش مرتـين فى هذه الدنيا ...

ثم أنهضته برفق وأجلسته باحترام إلى مائدتى ، وقلت له :

ـ والآن ، ماذا تنوى أن تصنع فى حياتك الجديدة ؟ ..

ـ أواجه الشر . إذا أردت أن تخدمنى أيهـا الرجـل الطيـب فدلنـى أيـن أجد الشر ..

فضحكت قليلا ، وقلت :

ـ هذا شيء بسيط .. وإن كنت شخصيا لست بالدليل البارع فى هــذا السـبيل .. ولكنـى أستطيع على كـل حـال أن أعرفـك بالشـر فـى أهـون مظاهره ..

وصفقت للساقى فحضر .. فقلت له :

ـ زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ ! ..

فحملق « الجرسون » فى وجهى ثم تنبه وأسرع يلبـى الأمـر ولم يلبـث أن عاد بالزجاجة غارقة فى إناء الثلج ، وفـض خاتمهـا الفضـى ، فـانطلقت السدادة كأنها مدفع .. نبه إلينا حسان الحانة . فصوبن إلينا نظرات دهشـة

مذهولة ، أتبعتها ببسمات ثم ضحكات خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد في الدهر ..

- في صحتك ! ...

ورفعت كأسي وأشرت إليه أن يرفع كأسه .. فرفعها بيد مرتجفة ورشف منها بحذر كأنما يرشف سما .. ولم يدر بخلدى قط أنى جرعته حقا سما سيسرى في حياته الجديدة ، ويفعل بها الأفاعيل .. ولم أفطن للأمر إلا بعد أن جرع الشيخ كأسه الثالثة .. وثمل وانقلب يغنى بالتواشيح الدينية والمدائح النبوية ، ثم يسبح بأسماء اللّه على مسبحته بصوت السكارى .. وهذا كل ما يعرف طبعا من غناء دفعته إليه النشوة .. فبذلت جهدا في إسكاته ، خشية الفضيحة .. وصيانة لمقام الدين ونحن في هذا المجال .. فاقتنع الشيخ ، وترك الغناء بهذه الأشياء المقدسة .. وتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلمح غانية ظريفة فتنحنح وقال :

- أعطنى هذه الحورية ! ..

فأومأت إليها ، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمداعبة الشيخ ، فداعبته ولاعبته حتى ذهبت ببقية لبه .. وخطر له وهو في أوج انشراحه وترنحه أن يسألنى عن اسمى ، فراوغته ، فقال :

- ولماذا أسألك ؟ أو تظننى أجهلك ؟

- أتعرفنى ؟

- طبعا .. أنت رضوان .. الذى أدخلنى هذا الفردوس بحوره العين .. !

وقهقه ضاحكا ، ومال على الغانية يضمها .. وانتصف الليل ثم دقت الساعة الواحدة ، وأقفرت الحانة ، وأراد صاحبها أن يغلقها . وهنا راحت السكرة وجاءت الفكرة .. ماذا أنا صانع بهذا الشيخ صاحب الكرامات ؟.. وأين يكون مقره ومقامه ؟ .. ليس من المعقول أن أسحبه معى أو أذهب به إلى منزلى .. وليس من المعقول أيضا أن أرده إلى ريفه وأعيده إلى ضريحه ! .. ما الحل ؟ أين يبيت ليله ؟ ..

وتأملت الأمر مليا .. ثم قلت فى نفسى : « ولماذا أتعب نفسى به ؟ ما شأنى بهذا الشيخ ولى الله ؟ .. هل عيننى أحد ولى أمره ؟ .. وهل قذفوا به من السماء لأحمله أنا على ظهرى ؟ .. »

وهدانى الله إلى وسيلة .. أن أنقد الغانية مبلغا لتخرجنى من المأزق ، وتبقيه معها ريثما أنصرف بسلام .. ولها بعد ذلك أن تأويه أو تلقيه ..

وتم لى ما دبرت ، وأنقذتنى الغانية الكريمة ، وانصرفت إلى بيتى ، وانقطعت عن هذه الحانة أسبوعا ، خشية أن أصادف الشيخ ، فيتعلق بى ويرغمنى على مصاحبته ومسامرته وتحمل تبعته وشأنه وهمه ومستقبله ..

ومضى الأسبوع فلم أجازف بالذهاب .. وآثرت الاتصال بصاحب الحانة بالتليفون .. فما كاد يسمع صوتى حتى صاح بى قائلا :

ـ ما هذه المصيبة التى نزلت علينا ؟!

ـ أى مصيبة ؟

ـ صاحبك الشيخ ... إنه لا يريد أن يترك المحل لا ليلا ولا نهارا .. وكلما ناقشناه صاح فينا : لن أذهب أبدا .. المؤمن لا يطرد من الفردوس

مرتين !..

ـ وماذا صنعتم به ؟

ـ لا شيء .. صنعنا له صندوقا لمسح الأحذية ، وحلقنا له ذقنه ، وألبسناه جلبابا .. وألحقناه بخدمة المحل ، ينظفه بالنهار ، ويلمع أحذية الزبائن بالليل ! ..

ـ فكرة نيرة جدا ..

قلتها بكل إخلاص ، وكل إعجاب .. ولكن هذا لم يمنعني من تعمد الانقطاع عن الحانة زمنا آخر ، حتى يلتصق الشيخ عليش بصفته الجديدة تمام الالتصاق ، وينسى الليلة المعهودة تمام النسيان ، فلا يلحقني من لقياه متاعب ...

* * *

ومرت أعوام ثلاثة .. دون أن أضع قدمي في تلك الحانة .. لا تعمدا بل طاعة لأمر القدر .. أو قل أمر الحكومة ، فقد دس لي الحاسدون النمامون لدى رئيسي الجديد « الغشيم » اللئيم ، واتهموني ظلما بأني قليل العمل كثير الكسل ، مدمن على السكر والعربدة وارتياد الحانات .. فما راعني ذات صباح إلا أمر من الوزارة بنقلي إلى أقاصي الصعيد .. فمكثت هناك إلى أن أذن الله والمساعي المثمرة بعودتي .

فما أن استقر بي الحال في عملي الجديد بالمصلحة ، حتى شعرت بالحنين إلى حياتي الماضية .. ونشطت ذات مساء أقصد هذه الحانة ، وكنت قد نسيت الشيخ عليش وما جرى له بالتمام .. فدخلت وأجلت النظر في

المكان ، فلم أجد شيئا على حاله القديم .. كل شيء قد تغير : مائدتى المختارة ، والغانيات والساقون و « البارمان » ، وحتى مدير المحل .. لم يبق شيء كما كان سوى اسم الحانة ، فهو هو دائما لم يتغير : « بار الفردوس » !..

وقفت لحظة حائرا لا أدرى أين أجلس .. حتى لمحت غانية من بنات الهوى ، قد اعتلت البار .. وهى بمفردها تدخن ، والدخان مغيم حول وجهها الأبيض المستدير كأنه السحاب حول قمر .. فاتجهت إليها ، ووقفت بجوارها وطلبت لها كأسا ولى أخرى ، وأخذت أغازلها بكلمات محفوظة مما يناسب المقام .. إلى أن قطع الحديث ماسح أحذية ، يهمس قربى : « تمسح يا بك ! » ...

فارتجفت ونظرت إليه ، وتذكرت فجأة الشيخ عليش .. وقلت فى نفسى : ماذا أنا فاعل لو ظهر الشيخ بصندوقه ، وماذا أنا قائل لو جذب حذائى ليمسحه ؟ أأدفعه إليه ، أم أأباه عليه .. ترفقا به واحتراما له ؟!

ورفعت الغانية قدحها إلى شفتيها ، وهى تنظر إلى باب الحانة قائلة لى بقلق :

ـ لن أقف طويلا معك ... إنى أخاف أن يحضر « فيرانى » .. إنه شديد الغيرة ! ..

ـ عمن تتكلمين ؟

ـ علوى .. علوى بك ! ..

ـ علوى بك ! .. من هذا ؟ ..

فظهر على وجهها الاستغراب ، والتفتت تحدق فى وجهى وهى تقول :

ـ عجبا ! .. ألم تسمع بهذا الاسم ؟ كل شارع عماد الدين يعرف من هو علوى ! .. يظهر أنها أول مرة تدخل فيها البارات والكباريهات ..

ـ حقا .. منذ أكثر من ثلاثة أعوام ! ..

ـ لقد اقترب موعد مجيئه .. أنصحك أن تبتعد عنى بمجرد إشارتى لك بالابتعاد .. وإلا فأنا لست مسئولة عن منخارك أو أذنيك إذا أطاح بها حد الموسى ! ..

ـ يا مغيث ! ..

قلتها هامسا مرتعدا .. وأنا أنظر إلى الباب .. ثم خطر لى أن أبتعد بكأسى عن المرأة منذ الساعة ، دون انتظار للمقدر والله يغنينا عن قربها المحفوف بالمخاطر . ولكنى خشيت أن أبدو على هذا الجبن أمام امرأة ، لعلها ما قصدت إلا العبث بى والمزاح معى ... وتجلدت قليلا ، واستأنفت الحديث والمغازلة .. وإذا هى فجأة تلتفت إلى الباب ، كالقطة التى أحست بغريزتها حركة .. ثم أدارت لى ظهرها ، ونأت عنى بقدحها .. فأدركت أن صاحبها قد حضر .. ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها قد مستها شرارة كهرباء .. فقد ساد بغتة صمت لدخول ذلك الرجل ، شمل الحاضرين من زبائن وساقين إلى مدير المحل الجالس فوق المنصة .. فرفعت عينى بحذر وأدب أفحص ذلك الذى يسمونه « علوى » .. فرأيت رجلا أنيق الملبس ، خفيف الشارب ، لامع الشعر يتضوع منه عطر الكلونيا الثمين .. وخاطب الرجل بلهجة الأمر « البارمان » فخيل إلىّ أنى أعرف

هذا الصوت ، واحتلت لأنظر إلى وجهه مليا .. فإذا الدهش يعقد لساني : لم يكن علوى بك هذا غير الشيخ عليش في قالب جديد ! ..

ولم أدر ماذا أصنع عندئذ .. هل أحادثه ؟ هل أنسحب من المكان دون أن أشعره بوجودى ؟.. وتساءلت : أترضيه مقابلتي اليوم أم تزعجه ؟ .. ليس لى أن أبدأ على أى حال بشيء .. ولكن الظروف سرعان ما تدخلت .. فقد أراد هو أن يخرج من جيبه الخلفي علبة السجاير . فصدمتني يده على غير انتباه منه . فالتفت نحوى .. وتقابلت عيوننا فحملق في وجهى لحظة ، كمن يراجع ذاكرته .. ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة أذهلت الحاضرين :

ـ رضوان ! ..

ثم فتح ذراعيه ، وعانقنى عناقا طويلا .. فرحا كالطفل ، مبتهجا كمن لقى لقية .. وهو يردد : « رضوان .. صديقى رضوان ! » .. وقبل أن أفتح فمى بحرف ، جذبنى من يدى وقادنى إلى مائدة في طرف الحانة كأنما يريد أن ينفرد ويستأثر بفرحة العثور على .. وصفق ينادى « الجرسون » :

ـ زجاجة شمبانيا ! ..

ـ هكذا سريعا ؟!

ـ دعنى أرد إليك بعض دينك ! أين كنت طول هذا الزمن ؟ .. لقد بحثت عنك في كل مكان .. ولكنك اختفيت فجأة . هأنذا أعثر عليك الآن فاتركنى أرد إليك الحسنة بعشرة أمثالها ! ..

ـ لست أدرى هل تعتبر فعلتى حسنة ؟! ..

قلتها كالمخاطب لنفسي ، وأنا أجيل بصري المشدوه في كل جزء من أجزاء هذا الكائن الذى كان يسمى فيما مضى « الشيخ عليش » كلا ، إن التغير الذى طرأ عليه لا يمكن أن يسمى تغيرا ولا تطورا ولا انقلابا .. إنه شيء لم يوجد له بعد اسم .. الوجه وجهه والصوت صوته ، ولكن اللهجة التى بها يتحدث ، والطريقة التى بها يشرب ، والأسلوب الذى به يسمر ، والعقل الذى به يفكر ، والنفس التى بها يشعر .. كل هذه أشياء أراها لأول مرة .. على أن عينى الفاحصة دلتنى على شيء عنده سبق أن رأيته .. طرف الموسى البارز هذه المرة من جيب الصدر ، خلف منديله الحريرى المتهدل .. ولم يدعنى أستغرق في دهشتي وتأملي .. فقد رفع كأسه قائلا :

ـ في صحة رضوان ! ..

فرفعت قدحى :

ـ في صحة علوى !

وشرب كأسه كلها في جرعة واحدة .. ثم التفت إلىّ قائلا :

ـ أرى أن عطشك الحقيقى هو إلى معرفة شيء عن صديقك الجديد « علوى » ! .

ـ طبعا ! ..

فأشار إلى ماسح الأحذية الذى يجوس بصندوقه خلال المكان وقال :

ـ لقد بدأ هكذا ..

ثم أخذ صوته يخفت كلما أوغل فى الحديث ، كأنما يدلى باعتراف أو يسعى إلى مخاطبة النفس .. ثلاثة أشهر أو أربعة حمل فيها صندوق الأحذية وتعلم خلالها النشل والمقامرة والمغامرة وخدمة الغوانى .. إلى أن تجمع فى يده مبلغ من المال .. فطرح صندوقه وجلبابه ، واشترى بذلة نظيفة وصار أفنديا .. ولكن صلته بالغانيات وحاجتهن إلى الحماية جعلتا منه فى نظرهن رجلا لا غنى لهن عنه .. ولقد تبين له بعد قليل أن هذا عمل مريح .. فقد كثر عدد المحتاجات إلى يده وحمايته .. وشاع عنه ذلك فى هذه البيئات ، وشاهد الناس من خوارق براعته فى استخدام الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حسابا .. وامتد نفوذه إلى أكثر البارات والحانات ، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين .. فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو ، ويطلب ما يريد ، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة .. بل هو الذى يتقاضى من أصحابها الأتاوات والمرتبات لضمان الهدوء فى هذه المحال .. وهو أحيانا يشتط فى الطلب ، ويركن إلى التهديد وإحداث الشغب فيذعن من يذعن ، ويلجأ البعض إلى بيع حاناتهم هربا منه وضيقا .. كما حدث للمالك السابق لبار « الفردوس » .. هذا هو علوى . وهذه حياته . رواها بلهجة سريعة مقتضبة .

ثم التفت إلىّ قائلا :

ــ والآن ما رأيك ؟ ..

فألجمتنى الحيرة .. ماذا أقول ؟ .. وكيف أمسه بنقد وهو شارب ، والموسى فى جيبه .. ولكنى أجبته برفق :

- لقد كنت هبطت الأرض لتواجه الشر فيما أذكر وتنازل الرذيلة ..

- ماذا تقول ؟ ..

- ألا تذكر أنهم أنزلوك إلى الأرض من جديد لتنازل الشر ؟ ..

- من الغريب أنني نسيت ذلك . لقد استغرقتني حياتي وجرفتني فلم أفطن إلى ما جئت له ..

- ألم تصادف الشر ؟ .. ألم تر الرذيلة ؟ ..

- أين ؟ ..

قالها كالتائه أو المحدق في الظلام .. فألقيت نظرة إلى الزجاجات الثلاث التى أفرغها فى جوفه ، منذ جلوسنا .. ثم تأملت حاله فلم أجد للشراب أثرا فى صوابه .. هو إذن صادق فى إحساسه .. لقد جرفه التيار إلى حد ألهاه حتى عن سؤال نفسه : « فى أى طريق يسير ؟ .. » .. يالها من هزيمة ! إنه لم يثبت للنزال ، لقد تلاشى الشيخ عليش ، وتلاشت عمامته ومسبحته بلمسة خفيفة من ظل الرذيلة ، لقد رفع فى الميدان الراية البيضاء دون وعى منه ، قبل أن يفطن حتى إلى وجود عدو ومعركة ! ..

وأطرق الرجل طويلا .. ثم قال بذلك الصوت الخافت الصاعد من أعماق نفسه :

- فى يدى المال والسطوة والمتعة .. ولكنى .. مخلوق شقى !

- أبدأ ضميرك يعذبك ؟

- ضميرى ؟! . أعرف الآن ما هو . أتستطيع أن تجيد الإصغاء إلى .. لأخبرك ؟ ..

ـ نعم .. أخبرنى بكل شىء . إنى أحس كأنى مسئول .

فقاطعنى بتصفيقة قوية ينادى بها الساقى وهو يصيح :

ـ زجاجة أخرى ! ..

ولكن مدير المحل أومأ إلى « الجرسون » أن يتغاضى ويتصامم ، وصفق علوى مرة ثانية وثالثة .. فلم يجد ملبيا لندائه ، فأطلق صيحة مدوية ضج بها المكان ، فحضر إليه مدير المحل يقول :

ـ علوى بك ! .. ألا تكفى ثلاث زجاجات من الشمبانيا الفاخرة ؟ هذا كثير ! ..

ـ الكثير أذناك اللتان لاتسمعان طلبى .. سأريك أن واحدة منهما تكفيك لسماعى ! ..

وفى مثل لمح البصر ، استل موساه من جيب صدره . وقذف مدير المحل .. وكنت لحسن الطالع قد فطنت لقصد صاحبى ، فدفعت بكل قواى مدير المحل بعيدا عن مرمى النصل ، فنجا واستقرت الموسى فى خشبة المنصة !. وهاجت الحانة وماجت ولكن مامن أحد تحرك من مكانه ، فقد كانت لعلوى هيبة .. فتسمر الحاضرون فى مكانهم رهبة أو وهما .. وقام هو يمشى على مهل بجلال إلى المنصة فنزع عنها نصلة البراق وطواه ودسه خلف منديله ، وأراد أن يعود إلى مجلسه من الخوان ، ولكنى أمسكت بذراعه وسألته بلطف أن يخرج معى من الحانة ، لنستأنف حديثنا فى هواء الطريق الطلق .. فأذعن مرغما لرجائى وخرج معى .. وهو يهمس بغضب مكتوم :

ـ لا يستطيع أحد أن يخرجنى قهرا من هذا .. « الفردوس » !

ـ قهرا لا .. لقد خرجت بإرادتك ! ..

قلتها له بلهجة التزلف والمداراة خشية من بوادره ، وتهدئة لثائره ، ثم سألته ونحن فى الشارع سائران أن يمضى فى حديثه ، وأن يخبرنى بما كان يزمع إخبارى به .. فنظر فى ساعة ذهبية بمعصمه وقال :

ـ لا أستطيع الآن .. غدا إذا شئت .. وموعدنا فى عين هذا المكان .

ـ عين هذا البار ؟! أو هذا ممكن بعد الذى حصل ؟ ..

ـ ماذا ؟ .. هذا يحصل كل يوم ! ..

*　　*　　*

لم أتمكن من مقابلته فى الموعد المحدد .. فقد دعيت إلى عرس أحد أقربائى فى الريف .. فسافرت ولبثت هناك بضعة أيام ، رأيت فيها العجب : ضريح الشيخ عليش أصبح كعبة يحج إليها مئات الناس من القرى المجاورة ، يحملون إليه الشموع أيام الأسواق ويوفون بالنذور .. وينوهون بكراماته العديدة فى إبراء الأمراض وقضاء الحاجات ..

ولقد أبصرت امرأة ترفع طفلها العليل بيديها ليلمس شباك الضريح ويتلقى من مس حديده البركة ، وهى تصيح من أعماق قلبها :

ـ ياشيخ عليش !. يا ولى الله يا ساكن الفردوس !.

نظرة .. مدد .. نظرة .. مدد !..

ولقد سمعت رجلا يهز باب الضريح صائحا :

ـ يا شيخ عليش ! . يا حليق الرأس .. خذ بيدى ، واشف وجع رأسى !

أبصرت ذلك وسمعته كثيرا من أفواه كثيرة .. وقلت فى نفسى : منذا يستطيع أن يقول فى هذه الجموع المؤمنة الآملة أن الشيخ عليش لا يوجد إلا فى بار « الفردوس » بشارع عماد الدين ، وأن من يدعونه ولى اللّه حليق الرأس ليس سوى « بلطجى » يحلق الآن الأنوف والآذان بموساه من رءوس الناس !! ..

لو قلت لهم هذا القول لرجمونى بالحجارة ، وصاحوا بى : اقتلوا الكافر !.. أهلكوا الكافر !..

على أن العجيب فى الأمر أن كثيرا من هؤلاء المرضى الذين يزورون الضريح يشفون حقا .. ولقد أكد لى ذلك بعض من يوثق بقولهم من جلة أقربائى فى الريف ..

ولقد فكرت فى ذلك قليلا ، فزال عنى العجب : يا لهؤلاء الناس ! إنهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون . إن الناس لا تريد أبدا أن تصدق القوة الخفية الكامنة فى أعماقهم . ولابد أن يخترع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون إليها مايأتون هم من معجزات .

وتخيلت حال الشيخ عليش ـ أو علوى بك ـ لو أخبرته بأمر هذه الكرامات التى تفيض على الجموع من نوافذ ضريحه .. بينما هو غارق فى خمور البارات والحانات .. ولكنى رأيت أن أمسك عن إخباره وأن ألزم الصمت المطبق ، رحمة بجيوب العباد .. فإنه لو علم ، لحضر إلى الريف واستغل هذا المنجم الذى لا ينضب .. وحسبى ما اقترفته من إثم ما زال يوقر ضميرى ، إذ دفعته إلى طريق الموبقة أول ليلة .. فلا ينبغى أن أدفعه

إلى طريق إثم جديد .. فليبق اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه إلى الجحيم .

عدت إلى القاهرة .. وذهبت في المساء إلى حانة « الفردوس » فتلقانى مدير المحل بالترحيب ، وشكر لى موقفى وتدخلى فى تلك الليلة التى هاج فيها علوى وقذفه بالموسى .. وقال لى إنه كان ينوى أن يخبر البوليس ، وأن يجازف ويتعرض لانتقام علوى .. فهو يعلم أنه لن يتركه في هدوء إذا هو بلغ عنه .. فهو له أعوان .. وأنه سيتعقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه .. لو سجن .. ولكنه آثر ضبط النفس ، والتغاضى عن الحادث .. لأنه يعرف علوى منذ زمن ، ويعلم أنه سريع الغضب سريع الصفاء .. والخير فى استئناف الصلات الودية مع مثله .. غير أنه يلاحظ عليه فى الأسابيع الأخيرة تغيرا غريبا . وليس هو وحده الذى رأى ذلك منه .. غانيات الحانة على الخصوص وهن أدق إحساسا بما يشغل نفسه في هذه الأيام .. ولقد سألته : أحادث علوى بعد تلك الليلة ؟ .. فأخبرنى وهو دهش أن علوى لم يحضر إلى الحانة منذ خروجه معى تلك الليلة .

وعبثا حاولت بعد ذلك العثور على علوى .. بحثت عنه فى جميع البارات والكباريهات ..

وأخيرا قال لى أحد خدم « البار » إنه لمح ذات مرة شخصا يشبهه جالسا أمام مقهى وصفه لى فى حى السيدة زينب .

فذهبت إلى ذلك المقهى .. فإذا بى أجد علوى قاعدا بمفرده ، يتأمل شيئا لا أتبينه .. فدنوت منه ، ولكنه لم يفطن إلىّ حتى وضعت يدى على

كتفه .. فأفاق فى شبه رعدة ونظر إلىّ وقال :

ـ أنت ؟ ماذا أتى بك إلى هنا ؟ ..

ـ وأنت .. ما الذى أتى بك إلى هنا ؟..

ـ اجلس ..

قالها وهو يهيئ لى كرسيا بجواره ، ونادى « الجرسون » وطلب لى فنجانا من القهوة .. وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه وقال بصوت كالهمس :

ـ يجب أن أخبرك ..

ـ بكل ما يقوم فى نفسك !

ـ نعم .. لن أخفى عنك شيئا مما فى نفسى .. إنى أحب . وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة ، فاعلم أن أمرا عظيما قد وقع . فأنا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء ، ومن أكثر الرجال متعة وامتلاكا للحسان والغانيات والجميلات .. ولكن الذى حدث لى قلب كيانى وأنبت فى قلبى مشاعر أحسها لأول مرة .. هى فتاة لو رأيتها لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحى بالحب .. على الأخص إلى رجل مثلى نحيلة ضئيلة يضرب لونها إلى الصفرة ، لا تضع الطلاء ، ولا تعرف الإغراء ولا تلبس غير البسيط الضرورى من الثياب .. هى معلمة فى مدرسة ابتدائية للبنات فى هذا الحى .. تسألنى : كيف عرفتها ؟

أقول لك : المصادفة .. كانت فى دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها ، يشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة . فلما انتهت الحفلة وخرجت بأطفالها تعرض لها شاب ثقيل بمغازلة سمجة ، فلم تعرف كيف

تحمى نفسها منه ، فتدخلت وأنقذتها ، وأوصلتها إلى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها .. فشكرت لى ذلك بصوت لن أنساه ! صوت أثر فى نفسى كما تؤثر أحيانا قطرات الندى فى قطعة الصخر .. صوت لم أسمع من قبل نبرة حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء ! .. منذ تلك اللحظة شعرت أنى محتاج إلى هذا الصوت ، كما تحتاج الصحراء إلى ماء المطر .. فكنت أجىء فى كل يوم أترقب موعد خروجها ودخولها المدرسة .. لأقابلها وأقرئها السلام ، زاعما لها أنى من سكان الحى ، وأنصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبى .. فأعيش على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة إلى صوتها من جديد .. هذا كل عملى الآن .. إنها كل شغلى الشاغل .. بل هى النور الذى أضاء جوانب نفسى وجعلنى أتحسس دهاليزها المعتمة وأعرف ما فيها من خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وكنوز وثعابين ، آه .. ليس الفردوس هناك فى السماء .. وليس هنا فى شارع عماد الدين !. إنه هنا فى القلب !. وربما كان فيه الجحيم أيضا !.. لقد عشت أياما على أمل الزواج منها .. لأنى بغير هذا المصباح لا أرى شيئا ، ولا أميز شيئا .. ولا أفرق حتى بين الحسنة والسيئة ، ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم !.. لقد تمكنت من إطالة حديثى معها .. فعلمت أنها مخطوبة لابن عم لها مدرس هو الآخر فى مدرسة ثانوية .. ولقد تبينت من حديثها وتفكيرها أضواء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والأهداف السامية .. كل همها فى الدنيا إخراج نماذج من البشرية الراقية .

وهي تتحدث عن خطيبها كمعاون لها في مهمتها الإنسانية .. لقد كنت أحس الضآلة والحقارة وأنا بجوارها أستمع إليها ، كأني ذبابة قذرة دانية من شراب مطهر أو دمقس مقدس !.. ماذا ينبغي أن أفعل بعد ذلك ؟ أمامي طريقان . إما الهجوم والعمل على الظفر بها بأى ثمن ، وقد أنجح .. فهي لا ترتاب في أمرى ، وتجهل كل شيء عنى ، وقد لمحت من حديثها بعض الاطمئنان إلى ، والثقة بي ، وليس من العسير أن أنمي ذلك فيها إلى حد العطف والميل وربما .. الحب .. وإما أن أنقذها مني ، وأتركها لطريقها المستقيم ، وخطيبها المهذب ، وحياتها النظيفة وهدفها السليم .. إذا دخلت حياتها فقد حطمتها وهدمتها .. فما أنا لها إلا نقمة ! وما ذنب هذه الطاهرة الماضي الباسمة المستقبل ، أن تكتشف ذات صباح وهي بين أترابها وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها أنها ما تزوجت غير « بلطجي » ! .. صناعته التكسب من أتاوات الغانيات والكباريهات ! وإذا تركتها .. ولم تدخل هي حياتي فقد حطمتني وهدمتني . ماذا أصنع ؟ .. إني لفي حيرة . وإني لأرتمي كل يوم في هذا المقهى ، بعد مقابلتها ، لأفتح في نفسي ميدان صراع : هل أقدم ؟ هل أحجم ؟ ..

وأطرق غارقا في صمت طويل . ولم أشأ أنا قطع هذا الصمت .. فسكت ، وجعلت أداعب بأصابعي أذن فنجان القهوة .. إلى أن رفع رأسه مرددا :

ـ هل أقدم ؟ هل أحجم ؟..

فاكتفيت بأن قلت له :

ـ تلك هى المعركة الكبرى بين الخير والشر ! وعليك الآن أن تخوضها !

* * *

مرت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوى ، فقد اختفى من كل مكان .. وإذا بى أتلقى خطابا من أقاصى الصعيد ، بإمضاء « الشيخ عليوه» يخبرنى فيه أنه افتتح كتابا من الكتاتيب فى تلك المنطقة النائية التى كان يرد ذكرها على لسانى فى أحاديثى مع « علوى » فى ليالى السمر بالبار .. وأنه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة . وأن الموسى عادت إلى حلق شعر رأسه زهدا .. والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة التقوى البصيرة ، والورع الحقيقى مع العمل المفيد والكدح المجدى ، وأن المصباح الذى أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعا عن الدنس .. ولقد تركه لمصيره الطاهر معاهدا نفسه أن يحذو حذوه ، وأن ينهج سيرته .. وأنه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق ..

وكانت تلك نهاية المعركة ..

* * *

وختم صاحبي المرح قصته قائلا :

ـ والآن هأنتذا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذى كان يسمى الشيخ عليش ، وعلوى بك ، والشيخ عليوه .. فما حكمك عليه ؟.. فقلت له وأنا أرشف قهوتى بعد العشاء الشهى الذى قدمه إلىّ :

ـ فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء .. فإنه سيصعد إليهم هذه المرة بملف زاخر ، سيقتضيهم فرزا دقيقا وحسابا طويلا .. قبل أن يصدروا حكمهم بقبوله النهائى أو طرده الدائم من الفردوس !..

لا كرامة لنبى فى وطنه

كانوا فى القرية يطلقون عليه اسم « زنجر » .. ولست أدرى أكان لهذا الاسم صلة بمنظره ؟ لقد كان أسود اللون ، قبيح الصورة مخروم الأذن . يرتدى معطفا عسكريا ، نحاسى الأزرار ، من بقايا الحرب العالمية الأولى ، قد رث عليه وبلى وضاعت أزراره إلا واحدا ربطه بخيط من تيل ، وهو يحمل فى يده هراوة كانت فرعا من شجرة السنط التى تظلل « الكباس » القبلى .. يرفعها ويجرى بها وراء الساخرين به والضاحكين منه .. وما أكثرهم ! ما من أحد كان يأخذه على سبيل الجد .. وما كان هو يحفل بآراء الناس فيه .. كان يكفيه دائما رأيه هو فى نفسه .. كان له إخوة يصغرونه سنا تزوجوا واستقروا وأنتجوا ذرية تسعى معهم إلى الغيطان وتعود منها بعد الغروب ممسكة بزمام البهائم المحملة بعليقها من الحشائش وأعواد الذرة .. أما هو فكانت فكرة الزواج تثير بالنسبة إليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هى تلك التى ترضى أن تتزوج من « زنجر » ؟

وكان هذا هو السؤال الذى اعتدت أن ألقيه عليه ، منذ أعوام طويلة ، كلما ذهبت إلى الريف :

ـ هل تزوجت يازنجر ؟!

ـ أبدا .

كان يقولها فى شىء من المرارة والثورة .. فكنت ألاحقه :

ــ وما السبب ؟

ــ ما فيش فلوس !..

هذا كان تعليله الوحيد .. ورأيت أخيرا أن أبطل هذه الحجة ، فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عرسه من مهر وفرح وثياب إلخ .. لو ظفر هو بالعروس . فسر لذلك وحمد وشكر ، ولكن الأيام مرت ولا نتيجة لهذا ولا أثر .. ولم أعلم ما حدث . ولكنى صرت بعد ذلك كلما مشيت بين الحقول وإلى جانبى « زنجر » أتأمل من أجله كل فلاحة تميس بقدها تحت ثقل الجرة ، كما يميس العود تحت ثقل السنبلة .. فأسائلها :

ــ يا بنت .. أتتزوجين الولد « زنجر » ؟ ..

فما أسمع إلا دقة على صدرها وصيحة :

ــ يا خيبتى ! ..

وتشتد فى السير مجفلة هاربة حتى تختفى ... وإذا زنجر بجوارى يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ :

ــ داهية لا ترجعك .. وأنا كنت أرضى ؟! ..

ثم يأخذ فى إقناعى بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق ، ودون ما يريد ، ويأخذ بعد ذلك فى حمد اللّه إذ ضرب على أبصارهن ، فهذا الرفض منهن نعمة ! .. ولكنى لا أقتنع ، وأظل أطرح السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية .. وأهبط فى سلم الجمال درجات ، وأطأطئ الرأس نيابة عنه وأقبل تضحيات ، حتى وصلنا إلى درك لا نزول بعده .. فكل مشوهات القرية ، من الخنفاء والعرجاء والحدباء ، عرضت أمره عليهن ..

فما سمعت قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه وذلك الدق المستنكر على الصدور .. وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه :

ـ ضاقت علينا الدنيا .. ما بقى غير « زنجر » ؟!

* * *

وصدقت وآمنت أخيرا بصعوبة زواجه .. فهذا رجل تنشأ فى القرية أضحوكة ، وشبت فتيات القرية لا يبصرن منه ولا يعرفن عنه إلا أنه رمز السخرية ، ومناط العبث ومثار الهذر .. لقد كان فى مجرد تقدمه إلى أسرة من القرية سوء أدب منه فى نظرها ، وتعد منه على كرامتها ، وخدش لسمعتها .. إذ استقل شأنها فخصها دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقدير .. هكذا كانت الأسرة تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة .. وبلغ الحال من السوء أن أصبح « زنجر » شخصية تغيظ بها البنت المذنبة إذا أرادت تأديبا .. ولم يشذ عن استخدام هذه « الأداة » التأديبية أحد حتى أنا .. فقد انتهى بى الأمر أن آمنت بما يؤمن به الجميع فى القرية .. وصرت إذا أردت أن أشتم بنتا مهملة من بنات الخدمة فى البيت أو الحقل أكتفى بقولى :

ـ والله يابنت لأزوجك من « زنجر » !

فتطفر دموع الخوف والضراعة من عينيها فى الحال .. وأدرك أنى قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطا يقيم عوجها ويصلح فاسدها .

كل هذا و « زنجر » فى ملكوت من نفسه ، وعالم من رأيه ، وحصن من « حالة معنوية » عجيبة .. مرتفع فوق لجج الاستهزاء العام ، لا تعصف

برأسه أنواء ، ولا يصل إلى عينيه رذاذ ولا ماء .. لطالما ساءلت نفسى فى أمره : أهو جمود ؟ أهى بلادة شعور ؟ أم هى صلابة شخصية وقوة إيمان ؟! ..

أردت أن أتندر به ذات يوم ، فقلت له :

ـ ومن التى ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية ؟

فقال بلا تردد :

ـ البنت « سلطانة » .

ياللعجب !.. « سلطانة » هذه هى أجمل بنات القرية طرا . هى الزرقاء العينين العسجدية الشعر .. التى يخشى التقدم إليها أجمل فتيان القرية وأقواهم .. هى التى يتنافس فيها المتنافسون ، ويتزاحم المتزاحمون ، من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته .. فما تمالكت أن صحت به :

ـ طيب اسكت .. اسكت ..

مرت الأيام .. وعدت مرة أخرى إلى الريف بعد غيبة عنه طويلة فراعنى ما أجد ، وأذهلنى ما أرى ..

زنجر قد تزوج ..

تزوج بمن ؟ ..

بفتاة أجمل من سلطانة ! ..

وعلم زنجر بحضورى ، فجاءنى وكأنه يقول : « هذه المرة تستطيع أن تسألنى السؤال المعهود » . ولكنى كنت علمت الجواب من قبل .. فاكتفيت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره .. بل لقد قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين .. لم يعد « زنجر » فى نظرهم ذلك « الأضحوكة » .. إن

الاسم لم يزل حقا لاصقا به . ولكن قد غسل عنه كل معنى من معانى الهزء والسخرية ..

كيف حدثت المعجزة ؟.. لم يخبرنى هو .. ولكن الذى قص على شيخ وقور من شيوخ القرية ، قال :

ـ حدث منذ ثلاثة أشهر أن حضرت إلى القرية « ترحيلة » « لنقاوة » الدودة من زراعة القطن وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قرى بعيدة .. فيهن جميلات وفيهن رشيقات .. وكان زنجر هو « الخولى » عليهن .. فإذا هو يلمح من بينهن فتاة هى أسطعهن جمالا وأوفرهن سحرا وأكثرهن فتنة .. بل هى حسن لم نر له مثيلا فى قريتنا .. فلزمها فى العمل ، وتودد إليها .. وخفف عنها .. وكان لا يأمرها إلا بمعروف ولا يعاملها إلا برفق ولا يحادثها إلا بلطف .. وتفتحت نفسه لها بيضاء جميلة كما تتفتح زهرة القطن .. وكانت الفتاة طيبة القلب ، فأبصرته « بعين » قلبها ولم تبصره بعين أذنها .. رأت فيه « الإنسان » ولم تر فيه « الأضحوكة » .. فهى من قرية بعيدة لا تعلم عنه شيئا .. فلم يقم بينه وبينها سد قديم من تلك الشخصية المبنية بلبنات الضحكات ، فى بلده ، على مدى الأعوام .. لقد بادلته لطفا بلطف ، وعندما قال لها مازحا ذات يوم : « تتزوجيننى ؟ » لم يرعه إلا قولها : « نعم » .. فقال لها :

ـ صحيح ؟

فقالت :

ـ صحيح .

ـ تحلفي على المصحف ؟

ـ أحلف .

وأقسمت أنها جادة .. وأنها لا تطمع في زوج خير منه ، فطار زنجر فرحا إلى أهله يزف إليهم الخبر .. ولم يصدق أهله هذا الكلام إلا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بآذانهم .. فارتفعت « الزغاريد » في القرية .. ودفع زنجر المهر لأم العروس ، فأبوها قد توفى وتزوجت أمها بغيره .. وجاءها بحلق و « غوايش » فضة وخلخال ومرتبة ولحاف ومسندين ومخدتين وحلة وطشت وفناجين قهوة وبراد شاى وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق .. إلخ إلخ .. ثم أعدت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل وطفق زنجر مع إخوته بزينونه بسعف النخيل والبوص والجريد والشال الأحمر .. وأتموا صنع الهودج الذى سيحضرون فيه العروس الفاتنة من بلدها .. كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطتهم بفوز هذا المظلوم .. وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتى سخرن من زنجر ، فأظفره اللّه بمن لا يصلن إلى كعبها ملاحة وطهارة ودماثة .

أصغيت إلى كل هذا .. وعلمت سر « المعجزة » .. لقد جاءه الخير والتقدير ورد الاعتبار من قرية أخرى بعيدة .. هكذا أنصفه اللّه .. بالطريقة التى أنصف بها من رضى عنهم من الرسل والأنبياء .

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقا فى نظر أولئك الذين يؤمنـون بنظريـة حلـول الـروح . تلك النظرية التى تزعم أن عدد الأرواح فى الكون محدود ، كمـا أن عـدد الممثلين فى المسـرح محـدود . وأن الـذى يتغير هـو الأدوار التـى يتقمصهـا أولئـك الممثلـون . وهـى أدوار لا حـد لها ولا نهايـة ، فـى تلـك الروايـة الاستعراضية العظمى ! ..

إذا سايرنا أصحاب هذا الزعم فى زعمهـم ، فإن الصـورة التـى يمكـن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمل . ومن السهل تخيـل الأرواح فـى ظهورهـا واختفائهـا فـوق مسـرح الدنيـا ، علـى الوجـه الـذى يحـدث بـالضبط فـى المسـارح التمثيليـة . فهنـالك ، مثـلا ، بعيـدا عـن هـذه الأرض وشمسـها وقمرهـا ، مكـان خفـى ، يمكـن أن نتصـور فيـه ملاكـا يقـوم بوظيفـة «الريجيسير» - أى مدير المسرح - يعطى الإشارة للشمس والقمر ، فتسـلط الأولى أشعتها الذهبية القوية ، والآخر أشعته الشـاحبة الفضيـة علـى سـطح الأرض .. كما تسلط مصابيح « البروجكتور » الكهربائية على خشبة دار التمثيل . ولا بأس من أن نتخيـل ذلـك « المـلاك » فـى مكانـه هـذا يباشـر أعماله اليومية ، وينظر فى « اللوح » الذى أمامه ، المسـطورة فيـه الأدوار والأقدار ، ويستعرض ألوف الأرواح المهيأة للظهور علـى مسـرح الدنيـا ،

ويستقبل الألوف من الأرواح الخارجة منه .. ولا ضير أيضا فى أن نطلق الخيال أبعد من ذلك ، لينسج لنا قصة روح من بين تلك الأرواح العائدة .

* * *

ظهر الروح الذى نروى قصته ، خارجا من الدنيا وهو مدهوش مذهول ، كمن أفاق فجأة من نوم عميق ، وهو يردد هذه العبارة : يقولون إني مت ! .. أأنا الآن ميت حقيقة ؟! زوجتى التى تتحطم تفجعا ، تصيح بأني أموت ، وأني مت .. أخبرونى أيها السادة .. هل أنا حقا ميت ؟!!

ولم يلتفت إليه « الملاك » المنهمك فى أعماله ، الشاخص ببصره إلى اللوح الذى أمامه ، والسجل الذى بين يديه ، واكتفى بأن هز رأسه وقال كالمخاطب لنفسه :

ـ كلكم هكذا .. لا تريدون أن تصدقوا أنكم متم . ماذا أصنع لكم ؟ .. أنا . ليس لدى وقت أنفقه فى إقناعكم وإقامة الأدلة والبراهين لحضراتكم .. تقدم يا .. ماذا كان دورك فى الدنيا هذه المرة ؟

ـ كنت طبيبا . وكانت لى زوجة .. آه . إن زوجتى هى التى تموت الآن ولاشك حزنا علىّ أنا .. ياللمسكينة !

ونسى ذلك الطبيب ـ أو روحه ـ كل ما حوله ، وراح يذكر كل دقيقة من دقائق حياته التى يؤكدون له أنها انتهت .. كان طبيبا جراحا ناجحا ، تخرج فى كلية الطب متفوقا ، وكل شيء يبتسم له ، لقد كان من أولئك القلائل الذين ينالون دائما ما يريدون ، كان حسن المنظر لطيف المعشر ، يظفر بنظرات كل ممرضة وطالبة . لكنه كان يعتقد أن هناك امرأة واحدة

لابد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره وجسمه ، ولابد لها أن تـأتي يومـا ، إنه أرادها ولابد لـه أن ينالها فـالقدر قـد عـوده أن ينيلـه كـل مـا يتمنـى ، فالنجاح فى مهنته تمناه ففاز به ، وقد تمنى المال والترف ، فجـاءه المـال مـن عمله ومن ميراث عـائلى ، وهـو بعـد ذلـك يتمنـى أن يلقـى الزوجـة التـى يعطيها حياته وكده وكسبه فوجدهـا ذات يـوم فـى صـورة مريضـة ، أتـت ليجرى لها عملية استئصال الزائدة الدودية ، ما أن وقع بصره عليهـا حتـى اضطرب . أترى الأرواح تتلاقى حقا ؟ كيف تلاقت روحاهما مـن النظـرة الأولى !؟ وكـان مـن المستحيل عليـه أن يتصـور أنـه هـو الـذى يجـرى لهـا الجراحة بيده ، ويشق جسدها بمديته . إن قلبه لن يحتمل ذلك . واعتذر لها ولأهلها بشتى الحجج ، وعهد بأمرها إلى جراح آخر قال إنه أمهر منه . ولم تدرك هى معنى ذلك الاعتذار إلا يوم فاتحها قائلا : « لقـد خلقـت لأكـون زوجك لا جراحك » ... وكانت هذه الزوجة كل شيء فى حياته . وكان هو كل شيء فى حياتها . ما من كائنين اتفقا والتصقا وأصبحا كائنا واحدا مثل هذين الزوجين . كانت زوجته تقول له يوم تـرى جرحـا فـى أصبعـه : «يا للعجب ! كأن الألم فى أصبعى أنـا . أهـو وهـم ، أهـو حقيقـة ؟ كيـف ينتقل الوجع المادى من أصبعك إلى أصبعى هكـذا أيهـا العزيـز وكـان هـو يقول لها : « العجيب حقا هو أن كلامك هـذا هـو عـين مـا عنـدى . لقـد شعرت فعلا يوم جئتنى لأشق جسدك ، كأن المشرط سيشق جسـدى أنـا ، وأنا بالطبع باعتبارى جراحك لن أعطـى مثلـك البنـج ، فتصـورى جراحـة تجرى لى بغير بنج ، بينما أنـت المريضـة لا تحسـين بـالألم ! » وعـاش هـذان

الزوجان السعيدان أعواما كلها هناء . ولم ينجبا أولادا . ولم يحل ذلك دون تعلق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرها الأطفال حتى لا يسمحا لغيمة أسف أن تخيم على حبهما . إنهما هكذا ناعمان أحدهما يكمل الآخر . ولا حاجة لهما بثالث .. وجاء اليوم المشئوم ... فقد نهض على عادته فى الصباح المبكر لإجراء عملية جراحية ، ولكن زوجته أحست فى ذلك اليوم خطرا ... وتنبأت بكارثة ، كما تتنبأ آلة الرصد بكسوف الشمس . فتوسلت إليه أن يبقى معها ذلك النهار . فأبى التقصير فى واجبه . إن مرضاه فى انتظاره . فادعت المرض ، فلاطفها ، وداعبها حتى كشف بظرف عن تحايلها ، وقبلها قبلة طويلة ، وانفلت من بين ذراعيها المتشبثتين بعنقه . وتركها جامدة كالتمثال .. وفى الظهر عاد وفى جسمه السم . فقد شرط قفازة أثناء الجراحة ، وسرى الداء فى دمه من أصبع مجروحة ، واجتمع حول فراشه أساتذة الطب وأساطين العلم لينقذوه من الموت . ومن خلفهم زوجة تموت وتحيا مع كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن .. كان الموعد محددا لانتهاء دوره فى الحياة عند هذا الموقف . وكان على الروح فى ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثياب التمثيل . وعندما كان يسلم النفس الأخير ، بين شهقات امرأته المكتومة ، وبريق دمعها المنساب ، ووقفتها المترنحة المتجلدة ، وابتسامتها المموهة الدامية خيل إليه أنه يرى الحقيقة تضطرب فى الظلام خلف عتبة الحياة . نعم ، الحقيقة هى أن الحياة ليست حقيقة . كان إحساسه إحساس ذلك الممثل الذى عاش دوره ، ونسى أمره ، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه ، إلى أن فرغ

من الموقف الأخير ، وشعر بنزول الستار ، فالتفت ، فإذا عينه تلمح فى الظلام « الكواليس » بما فيه ومن فيه ، فسكن ثائره ، ورفع يده ليمسح دمعه ، قبل أن يدلف إلى داخل المسرح فيسخر منه زملاؤه ويسخر هو من نفسه . ولكن عبرات المشاهدين كانت ترده إليهم وإلى التعلق بهم وبدوره . فالعواطف فى ذاتها حقيقة .. كذلك الطبيب المحتضر .. خطر له أن يبسم لزوجته الثكلى ، وأن يهمس لها أن الأمر زيف فى زيف ، ولكن .. كيف يكون كل هذا الحب زيفا ؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة ، وما بعد التمثيل فإن الدموع فى ذاتها جديرة بالاحترام ، والحب فى ذاته أجل من أن يهزأ به ، إن الحب حقيقة ، وإن ما يربطه بزوجته لا يمكن أن يخلع مع رداء التمثيل ، ولو اجتمعت عليه كل ملائكة السماء !.. وهكذا ترك الميت خشبة « الأرض » وخلع رداء جسده ، ودخل على « الملاك » المدير ، روحا عاريا مجردا .. ولم يحس بعد فرقا كبيرا بين ما كان منذ لحظة وما يكون الآن . أين هو ذلك الموت الذى يقولون عنه ؟ ما الذى تغير فيه ؟ ها هو ذا يحب زوجته حبا جنونيا .. وكل أمله أن يلفاها .. ولكنه لا يستطيع .. لأنه ميت ، كما يقولون . إذ يراها ، ويرى جزعها ، ويريد أن يمد يده إليها ، وأن يحادثها ليهون عليها . ولكن صوته لا يبلغها ، ويده لا تطيع إرادته . ما من أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره . كأنها أشياء منفصلة عنه . لا يملك تحريكها ، حاله الآن كحاله عندما كان ينتابه فى الدنيا كابوس فيريد وهو فى فراشه أن يتحرك ، ولكن إرادته لا تطاع .. إنه الآن إرادة مطلقة فى الهواء لا تسيطر على أجسام ، ووعى مطلق فى الفضاء لا يؤثر فى أشخاص ،

عدا ذلك فهو هو لم يتغير فمن يدريه أن هذا مـوت ؟ لعلـه نـوم عميـق أو حلـم عابر أو كابوس مؤقت !.

والتفت مرة أخرى إلى « الملاك » المنهمك فى أعماله وقال له :

ـ أنا لا أحس أنى ميت !

فنظر إليه « الملاك » نظرة شزراء وقال :

ـ أنت حر ..

ـ أريد أن أعود إلى زوجتى .

ـ قل هذا لعزرائيل من فضلك .

ـ عزرائيل ! أتمزح ؟؟

فلم يتمالك « الملاك » وقال نافد الصبر :

ـ ليس عندى وقت للمزاح يا سيدى . آه ، لو درى عزرائيـل ! ذلـك الذى لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله ، لمجرد قبضـه عـدة أرواح كـل يـوم ، ينفض بعدها يديه ويستريح ، أمـا أنـا فيجب علـىّ أن أقاسـى مـن أرواحـه وأتحمل ، وأصغى إلى ثرثرتها ! ياحضرة الفاضل .. ألم يقبضـك عزرائيـل ؟ كيف تريد إذن منى أن أعيدك إلى زوجتك ؟ وإذا كـان كـل روح يقبضهـا زميلى أعيدها أنا ، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح ؟!

ـ أنا شخصيا لا أرى فائدة . لقد كنت مع زوجتى فى أتم هناء . فلماذا تتدخلون أنتم لتفرقوا بين المحبين ؟!

ـ لا نستطيع ياسيدى الفاضل أن نتركك فى هذا الدور ، أعنى فى هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء ، لأن روحك تلزمنا فى عمل آخر .

- عمل آخر ؟

- طبعا . لابد لك من جسد آخر تحل فيه ، ودور آخر تقوم به . وهل تظن أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها ؟. لقد سبق لك أن حللت فى مئات الأجساد ، وقمت بمئات الأدوار .

- أنا ؟ أنا سبق لى أن كنت شيئا آخر غير زوج يحب زوجته ، وطبيب جراح فى ...

فابتسم « الملاك » ابتسامة الساخر المتبرم ، الرائى لجهل محدثه . وأخذ يقلب فى صمت صفحات سجله الضخم ، إلى أن وقف على صفحة ، نظر فيها لحظة ثم قال :

- اسمع يا سيدى .. قبل أن تكون زوجا وطبيبا ، كنت لصا سكيرا ، فتك براقصة فى ملهى ليسرق حليها .. ومات على المشنقة !

- أنا ؟ !

- انتظر ... ثم كنت قبل ذلك جنديا بسيطا قتل فى معركة . ثم كنت طفلا مات بالدفتريا ، ثم كنت امرأة ماتت فى الوضع .. ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة ، ثم أميرا مات مسموما . ثم كنت ساحرا هنديا لدغته أفعى ، ثم فتاة انتحرت فى حادثة غرامية ..

- كفى . كفى إنى لست مجنونا لأصدق هذا الهراء . أنا طبيب جراح . ولى زوجة أحبها ، وإذا لم ألحق بها فهى لابد لاحقة بى . ولن أصدق أبدا أنى كنت أمثل دورا .

فنظر إليه « الملاك » بابتسامته الهازئة وقال :

ـ كل مرة تقولون لى عين هذا الكلام ، أنت وغيرك .. إنكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلا .

ـ تمثيلا ؟... حبها لى وحبى لها ... وحياتنا معا التى لا نتصور حياة غيرها !.. لا .. لا ..

ـ إنك لم تزل واقعا تحت تأثير دورك .. إلى أن تذهب إلى البحر ، فتغسل ذلك الطلاء ، وتزيل ذلك « المكياج » عندئذ فقط تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد .

وأشار « الملاك » إلى أحد مساعديه العديدين ، إشارة ذات معنى ، فتقدم ليقود روح الطبيب ، ولكنه وقف ونظر إلى عتبة الباب وقال لرئيسه :

ـ عزرائيل أرسل إلينا روح امرأة .

ولم يكد يتم كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة ، وما كاد روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته ، حتى صاح فرحا :

ـ ألم أقل إنها لابد لاحقة بى !

واندفع كل منهما نحو الآخر . وقالت روح الزوجة :

ـ آه يا زوجى العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك ، لقد كانت ليلة فظيعة ... تلك التى رأيت نفسى فيها وحيدة بدونك ، أناديك فى الظلام .. ولم أتمالك نفسى عند الفجر ، وأنا محطمة الأعصاب فتناولت كل ما كان بجوارى من أقراص الأسبيرين طالبة النوم الأبدى ، والراحة السرمدية ، أو اللحاق بك ، وهاهو ذا أملى يتحقق وأراك . كيف أنت أخبرنى . إنك بخير فيما أرى ، كيف قالوا إذن أنك مت ؟ أنا أيضا لست ميتة فيما أعتقد . كنت

أتمنى الموت .. وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والإسعاف بعد تناولى الأقراص ، أنهم يهمسون حولى بكلمة « الموت » ولكن .. أين هو الموت ؟! أين هو ذلك « الموت » ؟!

ولم يستطع « الملاك » صبرا .. فنفخ صائحا :

ـ أف ! لعنة اللّه على هذه المهنة !..

* * *

طفق الروحان يثرثران كالأطفال ، وقد أعماهما الفرح عن كل ما عداهما ، ولم يحفلا بمن حولهما ، وأدرك « الملاك » أنهما لن يفرغا من الحديث ، إذا تركا وشأنهما ، فأومأ إلى مساعده أن يقودهما إلى حيث يغسلان عنهما آثار دوريهما .. إلى « بحر النسيان » ..

واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما ، فجفلا منه وابتعدا عنه ، والتفتا إلى « الملاك » صائحين :

ـ أيراد التفريق بيننا هاهنا أيضا ؟

ـ لابد من ذلك .

ـ نتوسل إليك .. نتوسل إليك أن تدعنا معا دائما . فى كل مكان وفى كل زمن ، وفى كل دنيا .. ماذا يكلفك هذا أيها الملاك اللطيف ؟

ـ هذا قد يحدث لنا بعض الارتباك في العمل .

قالها بصوت بدت فيه رنة لين ، فمضى الزوجان فى الإلحاح :

ـ نتوسل إليك . مثلك لن يعدم وسيلة . اجمعنا دائما ولا تفرق بيننا أبدا .

ــ سأرى .. سأرى .. ربما دبرت لكما ذلك . لكن اذهبا الآن قبل كل شيء واغتسلا في البحر .

ــ شكرا لك ..

لفظها الروحان بحرارة وفرح ... وذهبا فى الحال مع المساعد صاغرين إلى « بحر النسيان » .

وهناك وجدا بحرا هائلا ، له شاطئ جميل مثل شواطئ المصايف الشهيرة . والبحر يعج بالأرواح السابحة فيه فخلب لبهما المنظر . واندفعا إلى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا فى الدنيا .

وقفزا معا إلى الماء ، يتناغيان بأرق الأسماء ، وغمرها موج أبيض كأنه رغوة الصابون ..

فإذا هما يحسان كأن شيئا يزول عنهما رويدا رويدا .... وإذا كل منهما يردد من أعماق نفسه متعجبا متسائلا : « من أنا ؟ ومن هذا الذى بجوارى ؟ » وخرج من هذا البحر من خرج إذعانا لأوامر المساعدين ، وبقيا هما حتى أشار إليهما المساعد الموكل بهما فخرجا كما تخرج اللوحة المكتوبة من الماء .. لا أثر فى نفسيهما لحرف واحد من حروف حياتهما الماضية . وأعادهما المساعد إلى « الملاك » وقد جاءت نوبتهما فى المثول أمامه ، لتوزيع الأدوار الجديدة ، فسأل كلا منهما :

ــ هل تعرف من أنت ؟ وأين كنت ؟ .. وهل تعرف من هذا الذى بجوارك ؟

فأشار كل منهما بالنفي . فقال « الملاك » كالمخاطب لنفسه وهو يراجع سجله الضخم :

– إني وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى .. دوران يصلحان لذلك ، فلتكن أنت طيارا رياضيا . وأنت فتاة عاطفية .. أيها المساعد .. اقذف بهما إلى مسرح « الأرض » .

كل شيء كان قد أعد ليصير « هو » طيارا ، فقد خرج إلى الدنيا طفلا فى أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت ، وشغف فى حداثته بالألعاب الرياضية ، وغدا فتى وتعلم فى المدارس ، وأصبحت له ميول وموجهات ، بعضها يدافع البعض ، ولكن الظروف النهائية وجهته على الرغم من كل شيء إلى الطيران ، فدرسه ، والتحق بإحدى شركات الملاحة الجوية . أما « هى » فقد شبت خيالية النزعة مدللة مترفة فى أسرة ميسورة الحال ، مفككة الأخلاق . الأب مشغول بنفسه وملاهيه ، والأم ساذجة ضعيفة الإرادة . وولعت الفتاة بالرقص والحياة الصاخبة الحديثة . وكان « هو » فى طرف من المجتمع و « هى » فى طرف ، ولم يكن من السهل أن يلتقيا . فهو لا يرتاد المجتمعات التى ترتادها هى ، ومع ذلك فقد كان لابد من التلاقي .. وقد حدث ...

كان يقود طائرته ذات يوم . وكان الباب الصغير الذى يفصل بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحا على غير العادة ، فلمح فى أحد المقاعد فتاة تقرأ إحدى المجلات . ما كاد يراها حتى ارتجف ، وارتجفت معه الطائرة بمن فيها ، فقد غفل لحظة عن قيادتها . وانزعج الركاب قليلا ،

ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة . فتقابلت عيناهما . وعجب مهندس اللاسلكي لما حدث ونظر إلى الطيار بجواره ، فألفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلا : « إنى أعرفها . أين رأيتها ؟ متى رأيتها ؟ » . وما كاد يهبط فى مطار الوصول ، حتى قفز منها وتبع الفتاة ، وتقدم يخاطبها كأنه يعرفها من قبل . أما هى فلم تنهره ولم تغضب منه ، بل أحست الارتياح والرضا ، وشيئا من الاطمئنان الخفى إلى هذا الشاب . ومضى هو يقول بإخلاص حار :

ـ إنى آسف إذ أضطر أن أقول لك تلك العبارة التى ابتذلها الشبان اليوم : « أين رأيتك من قبل ؟ » ثقى أنى لا أتخذها حجة لمحادثتك .. ولكنى .. عندما وقع بصرى عليك شعرت فى الحال أنى أعرفك وأنى رأيتك فى مكان ما ، انتظرى .. ربما تلاقينا آخر مرة فى .. فى بحر ؟ ..

فأجابت باسمة :

ـ من الجائز .. فى « بلاج » من هذه « البلاجات » ..

ـ ربما .. أخشى أن تكون الطائرة قد أزعجتك عندما ارتجفت .

ـ لا .. إنى فقط عند هبوط الطائرة ، أحس عادة بعض الصداع . ولكن عندى دواء لذلك ..

ـ قرص واحد من الأسبيرين يكفى .

فظهر فجأة الارتياع على وجه الفتاة وهمست :

ـ أسبيرين ! .. أرجوك .. لا تلفظ هذه الكلمة ، لا أمقت شيئا مثلما أمقت الأسبيرين . ربما اتهمتنى بالخبل . ولكنى منذ صغرى أرتاع لمجرد

رؤيته سامحني .. هناك أشياء تولد فينا ولا نستطيع لها تعليلا .

ـ لا تؤاخذيني .. إني آسف .. لم أقصد إيذاءك مطلقا .

ـ أعلم ذلك . هذا ليس ذنبك . إنما هي نزوة من نزواتي ليس لها مبرر . ألا يتفق ذلك أحيانا لكثير من الناس ؟ ألا يحدث لك أنت أيضا أن تكره شيئا بدون سبب ؟

ـ نعم .. نعم .. أنا أيضا كنت أحس الإغماء كلما ذكرت أمامي كلمة « عملية جراحية » . وعبثا حاول أهلي تعليل ذلك . ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا .. وأصبحت بعدئذ شخصا عاديا ..

ـ أرأيت ؟ فينا أشياء كثيرة متقاربة .

ـ هذا من حسن حظي .

* * *

منذ تلك المحادثة الأولى ، وهما يشعران كأن شيئا يجذب أحدهما إلى الآخر ولم يمض قليل حتى تم بينهما الزواج ، ولكن .. مرت الأيام وكل منهما يلحظ أنه يسير في طريق غير طريق الآخر . هو يأتي من عمله متعبا فيجد المنزل يصخب بأنغام « الرومبا » و « الفوكس تروت » و « الهوجي بوجي » فينبهها برفق :

ـ أما تكفيني طول النهار ضوضاء المحركات ؟ .

فتجيبه بتبرم :

ـ محركات ؟! هذا كل ما تعرفه . أنت لست « رومانتيك »

وكان يبلغ هذا الخلاف بينهما فى الاتجاهات . وكان يعلل النفس بأن هذا طيش قد تمحوه الأمومة . وأنجب منها طفلين جميلين ، ولكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج . بل المزاج هو الذى قهر الأمومة ... وأمسى الزوج الطيب يجد ليالى زوجته مشغولة كلها بالحفلات والسهرات . وتعدى الأمر إلى ما هو أمر . فقد دخل عليها يوما فوجد لديها شابا لا يعرفه . زعمت أنه من رفاق الطفولة ، وأنه أخوها فى الرضاع . وقام بين الزوج وزوجته شجار ، حسمه الزوج بالحسنى مراعاة لأولاده . ولكنه أدرك عندئذ أن علة شقائه فى الحياة هى هذه المرأة . وكرت الليالى حمراء بالنسبة إلى الزوجة اللعوب ، بيضاء من السهاد ، سوداء من الهم ، بالنسبة إلى الزوج المنكود . ولم يعد يحسن عمله لقلة نومه واعتلال صحته ، وسمع همسا فى الشركة المتذمرة ينذر بالشر ، كما سمع همسا عن سلوك امرأته ينـدى لـه الجبين الحر . وأكلت نفسه الهموم ، ونخرت فى قلبه الشكوك .. وفى ذات ليلة دهم زوجته وهى فى أحضان شاب .. فارتاعت وقالت متلعثمة : إنه معلم رقص يعلمها الرقصة الجديدة . وفقد الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصة أردتها قتيلا . وقفز « معلم الرقص » المزعوم قفزة « فوكس تروت » من أعلى السلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظيرة الدجاجة .. وسمع الجيران الطلق النارى ، فصاحوا ، وأقبل « البوليس » ينفخ فى صفارته وثاب الزوج إلى رشده ، وفطن إلى الفضيحة ، فأفرغ فى رأسه رصاصة أخرى أردته قتيلا هو الآخر ...

ورفع « الملاك » بصره من فوق سجله الضخم على شجار روحين داخلين عليه ... أحدهما يقول للآخر :

ـ سخيف !.. أقسم أنك سخيف . تطلق علىّ مسدسك لسبب تافه كهذا ؟! ما أضيق ذهنك أيها الزوج المغفل ! .. ولكن هل ينتظر من مثلك تصرف غير هذا !؟ إنك طول عمرك كنت زوجا مغفلا ! ..

ـ اسكتى أيتها المرأة .. لاداعى لسلاطة اللسان ! .. ولكن الذنب ليس ذنبك .. الذنب ذنبى أنا .. لاشك أنى جننت حتى أقتلك وأقتل نفسى معك فى نفس الوقت . ما الفائدة ؟. ماذا فعلت أنا إذن ؟ .. هأنت ذى معى هنا أيضا .. يا للمصيبة !.. يا للمصيبة !

ولم يجد « الملاك » بدا من التدخل ، فصاح فيهما طالبا إليهما السكون واحترام المكان .. فتقدم إليه الزوج ـ أو على الأصح روحه ـ صارخا متوسلا :

ـ ياملائكة السماء ! .. ياشياطين جهنم !.. يا عفاريت الجن .. خلصونى من هذه المرأة !.

نصيب

في حياة كل رجل لحظة يشعر فيها فجأة بأنه مثل غطاء الطبق الـذى لا يجد طبقه ، والويـل لمن لا يفطن إلى هـذا الشـعور إلا متـأخرا ، إنـه يـترك عندئذ كل شيء وينقلب مجنونا بتلك الفكرة المسيطرة : البحث عن شـطره الآخر . كان بطل هذه القصة من هـذا النـوع مـن الرجـال . شـاب مجـد طموح تخرج في الجامعات مهندسا بارعا . درس في مصر ثـم فـى الخـارج وكان في مقدمة أقرانه دائما . لا يعـرف غـير العمـل ولا تنظـر عينـاه غـير طريق مستقبله الناجح . وقد ركض في هذا الطريق بالفعل حتى بلغ درجـة « مدير أعمال » وكاد يشرف على الخامسة والثلاثين وهـو مسـتغرق هـذا الاستغراق في عمله الهندسى . وإذا بغتة تدهمه هذه اللحظة الحاسمة . وإذا هذا الغطاء الذى كان يجرى على « سنه » ناهبا الأرض كأنـه كـل شيء ، قد اصطدم بجدار تلك اللحظة العجيبة ، فوقـف ودار حـول نفسـه دورات ثم انبطح على ظهره ورن معدنه رنينا مكتوما وكأنـه يهمـس : « مـا أنـت إلا غطـاء الطبـق ! » وأفـاق المهنـدس بعدئـذ وليـس فـى رأسـه غـير فكـرة واحدة : الزواج .

ودهش أصدقاؤه لرنين هذه الكلمة في فمه ، فهم لم يسمعوها قط منه ، ما الذى حدث ؟ وهم الذين طالما فاتحوه من قبل في هذا الأمر ، فلم يجدوا منه غير الصدوف وعدم المبالاة . لقد كان كلما ذكرت أمامه « الزوجة »

ـ أو النصف الآخر ، أو « شريكة الحياة » ـ يبدو عليه كأن الموضوع لا يعنيه ولا يفهم مغزاه ، ويبتسم أحيانا ابتسامة المتعجب لغلو الناس فى الوصف وإسرافهم فى التعبير . لقد كان يحس إحساسا أكيدا أنه كامل بنفسه . وأنه واحد صحيح لا نصف ولا ثلث ولا كسر من عدد . إنه درس الحساب والجبر والرياضيات العليا فمنذا يقنعه بأنه أقل من رقم ، وأنه نصف فقط ، وأن هنالك نصفا آخر فى مكان ما ينقصه ليكون الناتج واحدا صحيحا ؟ هذه المسألة الحسابية الآدمية من الذى وضعها ؟ ولماذا ؟ ولمصلحة من ؟ لا .. لا .. إنه لا يظن الطبيعة مشغوفة إلى هذا الحد هى الأخرى بعلم الحساب .. لتجعل من الرجال والنساء أرقاما أو كسورا من أرقام تجمع بينها وتطرح . كان هذا كلامه فيما مضى . أما الآن فهو يقول لأصحابه : « صدقتم ، الحياة حساب .. الحياة مسألة حسابية . أنا كسر .. أنا نصف ... اجمعونى من فضلكم على النصف الآخر ! » . لكن بقيت المعضلة الكبرى : كيف العثور على ذلك النصف ؟ هل يترك الأمر للمصادفة أو عليه هو بالسعى ؟ هل القدر هو الذى يخط على لوح الوجود ـ بالطباشير ـ جامعا الأنصاف بعضها إلى بعض ؟ أو أن على الرقم المشطور أن ينفلت هو بنفسه من تحت أصبع القدر وطباشيرته ويسرع زاحفا على اللوح بحثا عن بقيته ؟

ولبث المهندس أياما لا يلقى على معارفه المتزوجين غير هذا السؤال الذى لا يتغير : « كيف عرفت زوجتك ؟ » ، وكانت الإجابات مختلفة ، فمنهم من يقول : « رأيتها فى سهرة عند بعض الأقارب أو الأصدقاء » ،

ومنهم من يجيب : « قابلتها في سوق خيرية فأعجبتني ، فسألت عنها » ، ومنهم من يذكر : « كانت على البلاج ، فتبعتها وعرفت عنوانها » ، ومنهم ــ وهم الندرة في هذا الزمان ممن يؤمنون بالنصيب أو اليانصيب ، ولا يرضون بطرائق الاختيار الحديثة ــ همسوا له : « واللّه البركة في الخاطبة أم شلبي » . وحار المهندس في هذه الأساليب جديدها وقديمها ، ولكنه لم ينكر ولم يرفض ولم يعترض ... لقد قبلها كلها . كل سبيل يؤدي إلى شطره الآخر لن يتردد في سلوكه . لقد فتح عينيه واسعتين وذهب بهما يجوس خلال السهرات والطرقات والشواطئ والأسواق . لكن .. وأسفاه ، أما هذه فقصيرة وأما تلك فطويلة .. والأولى أنفها لا يروقه والثانية فمها لا يعجبه .. ثم إذا هو أغضى عن المظهر فمن يدريه بالمخبر ؟ لقد جند كل أصدقائه وزوجاتهم للبحث معه . ذلك أنه لم يكن له أقارب في القاهرة ... فإن أهله في الريف .. وليسوا ممن يحسنون فهم ما يريد .. ولم تكن صلته بهم تبيح لهم التدخل في شئونه ، فقد كانوا أقارب من درجة بعيدة .. لأن والديه ماتا بعد تخرجه في الجامعة بقليل .. لذلك كان اعتماده على معارفه .. وأغلبهم كان يرتاب في أنه يأخذ الأمر اليوم على سبيل الجد . فكانت معاونتهم له ضئيلة فاترة في أكثر الأحيان ، ثم زادهم فتورا وانفضاضا من حوله ما رأوه من تردده في الاختيار وعدم بته في الأمر ، ونبذه كل فتاة عرضت عليه بحجج مختلفة . على أنه لم يكن في الحقيقة متعنتا ولا متعللا ، إنما هو ذهنه كان قد صور له امرأة بملامحها وخصالها ، وأوهمه أن تلك هي نصفه الذي لا يرضى به بديلا . فهو

لا يريد أن ينتقى إلا طبقا للأنموذج الموضوع فى رأسه . وطال بحثه عبثا وذهب جريه سدى . فقعد ذات مساء يائسا ونظر إلى السماء قائلا : « تعبت أيها القدر ! الكلمة لك أنت الآن . سأغمض عينى وأمد يدى ، فضع فيها من تشاء ! » . وما جاء الصباح حتى أرسل فى طلب الخاطبة أم شلبى ، نعم ... ولم لا ؟ مادام قد نزل عن نماذجه وصوره ، وقنع بالنصيب المكتوب فى اللوح ، وأسلم قياده للقدر يخط بيده ما يريد .. فماذا يصنع غير ذلك ؟ أليست أم شلبى من عملاء القدر أو من أدواته ؟ ... من يدرى ؟ لعلها هى الطباشيرة فى أصبعه . إذ لا يمكن للقدر أن تكون له وسيلة أخرى يفرض بها فى مثل هذا الأمر إرادته السماوية . وأقبلت تلك « الطباشيرة » فإذا هى امرأة ضخمة بدينة سمينة جسيمة كأنها فيل . وهل ينتظر أن يملأ يد القدر أو يليق بأصبعه حجم أقل من هذا الحجم ؟! وعرض المهندس الخاطب طلبته ، ووصف لها على قدر الإمكان بغيته . فمضت المرأة واختفت أياما ثم عادت ومعها سجل حافل بأسماء الأسر ، ومنديل كبير يضم عددا من الصور الفوتوغرافية لفتيات على كل طراز . فوقع فى حيرة جديدة : كيف يتخير وأيها يختار ؟ وحدثته الخاطبة فيما حدثت عن فتاة تصلح .. ولكن ـ ياخسارة ! ـ تقدم إليها خاطب طيب من السهل رفضه . تصلح لى ؟ وأين صورتها ؟ .. وخيل إلى المهندس فى تلك اللحظة أن هذه الفتاة هى امرأته ونصفه وحلمه ، وأن عليه أن يختطفها من منافسه اختطافا . وأين صورتها ؟ فقالت الخاطبة إن أهلها رفضوا كل الرفض أن يعطوها أية صورة لها ... ولكنها جميلة وأى جمال ... فتشبث المهندس

بأذيال الخاطبة وصاح : « لابد من الصورة » . ففكرت مليا ثم نظرت إليه نظرة دهاء ، فمثلها لا يعجز عن الحيلة . لقد لمحت فى بهو الدار صورة الفتاة معلقة على الحائط .. فهى ستذهب إليهم لتخبرهم بأمره .. ثم تغافلهم وتخطف الصورة المعلقة وتأتى بها إليه . نهضت من فورها وذهبت وتركت المهندس فريسة ذلك الإحساس . إنها هى . إنها هى .. لقد وجدها أخيرا . ماسر هذا الشعور ؟ أتراه الغموض الذى يشملها ؟ إنه لم يرها وينازعه فيها منذ الآن منازع .. كيف هى ؟ وهل يفوز بها ؟ إنه واثق أن صورتها هى صورة المرأة التي يبحث عنها . ولبث يفكر فى ذلك طول مسائه ... وتقدم الليل وأراد أن يأوى إلى فراشه .. ولكن النوم استعصى عليه فقام وأضاء المصباح الكهربائى الصغير فوق رأسه ، وتناول كتابا يهدئ من أعصابه الثائرة .. وإذا نظره يقع على صفحة تحتوى قصة قديمة لرجل من بلاد السند كان يبحث هو أيضا عن زوجة أحلامه ، فكان بحثا ممضا على غير طائل ، فقال له قائل : « لا تيأس . ابحث عن الزوجة ولو فى الصين » فلم يبطئ الرجل . وركب فى الحال البحر إلى بلاد الصين فكسر المركب به وبمن معه فى وسط البحر . فنجا مع بعض القوم على خشبة من خشب المركب ، ووقعوا فى مكان لا يدرى أى مكان هو ، فأقاموا فيه أياما لا يجدون قوتا حتى أشرفوا على الموت ، فقال بعضهم لبعض : « تعالوا نعاهد الله على أنفسنا أن ندعو له فلعله يرحمنا ويخلصنا من هذه الشدة » فقال بعضهم : « أصوم فى كل عام شهرين » ، وقال البعض : « أصلى فى كل ساعة ركعتين » ، وهكذا . إلى أن قال كل منهم

شيئا والرجل طالب الزوجة ساكت فقالوا له : « قل شيئا ! » ، فحار ولم يجئ على لسانه إلا قوله : « لا آكل لحم فيل أبدا ! » فصاحوا به : « الهزل في مثل هذه الحال ؟! » فأجابهم . « واللّه ما تعمدت الهزل ، ولكني منذ بدأتم وأنا أعرض على نفسي شيئا أدعه للّه فلا يخطر على بالى غير الذى لفظت به » . ومرت اللحظات بهم ، فقال أحدهم : « لم لا نطوف في الأرض متفرقين بحثا عن القوت ، فمن وجد شيئا أنذر به الباقين ، والموعد هذه الشجرة ؟ » . فتفرقوا في الطريق ، وإذا أحدهم يرجع بعد قليل بولد فيل صغير ، فلوح بعضهم لبعض فاجتمعوا . وأخذوا الفيل الصغير واحتالوا فيه حتى شووه ، وقعدوا يأكلون ، وقالوا للباحث عن الزوجة : « تقدم وكل معنا » ، فقال : « أنسيتم أني منذ ساعة تركته للّه ؟ إني لم أرجع في شيء تركته للّه أبدا ... ولو كان في ذلك موتى جوعا » ، وأكل أصحابه بدونه ، وأقبل الليل فتفرقوا إلى مواضعهم التي كانوا فيها يبيتون . وأوى هو إلى أصل شجرة كان يبيت عندها ، فلم يكن إلا لحظة ، وإذا بفيل عظيم قد أقبل وهو ينعر والخلاء كله يندك بنعيره ، وهو يطلب القوم . فقال بعضهم : « قد حضر الأجل » ، فاستسلموا وتشهدوا وأخذوا في الاستغفار والتسبيح ، وطرحوا أنفسهم على وجوههم ، فجعل الفيل يقصد واحدا واحدا ، فيشمه من أول جسده إلى آخره فإذا لم يبق فيه موضع إلا شمه ، شال إحدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه ثم تركه كالعجين ، وقصد آخر ففعل به مثل ما فعل الأول ... إلى أن لم يبق من القوم غير الباحث عن الزوجة ، وهو جالس منتصب يشاهد

ما يجرى ويستغفر ويسبح ويقول : « قاتل اللّه ذلك الذى نصحنى هذه النصيحة الشؤم ، وأخرجنى من بلادى فى طلب .. » ولم يتم كلامه ... فإن الفيل لم يمهله وقصده للفور . فارتمى الرجل على ظهره مستقبلا الموت ، وجعل الفيل يشمه كما شم أصحابه من قبل ، ثم أعاد شمه مرتين أو أكثر ، ولم يكن فعل ذلك بأحد من الآخرين ، وروح الرجل فى خلال ذلك تكاد تخرج فزعا .. ثم لف خرطومه عليه فشاله فى الهواء ، فظنه الرجل يريد قتله بقتلة أخرى ، فجهر بالاستغفار ولكن الفيل رفعه بخرطومه وأجلسه فوق ظهره ، وانطلق به يهرول تارة ، ويتهادى أخرى .. إلى أن طلع الفجر واشتد ضوؤه ، فإذا الفيل قد أنزله من فوق ظهره ، وتركه على الأرض أمام باب قصر فخم .. ورجع إلى الطريق التى جاء منها .. ولبث الرجل فى موضعه لا يعقل ولا يعى من الفزع والجزع .. ولم يثب إلى رشده إلا وهو داخل القصر .. فانتبه إلى نفسه .. فإذا هو فى فراش وثير وثياب جديدة وإلى جواره فتاة كالبدر هى ابنة صاحب الدار .. طفقت تعنى به وهو ينظر إليها ويهمس قائلا : « أمن الموت إلى الحياة .. وأى حياة ! إنها هى .. هى ! » نعم كانت هى ضالته التى تجشم من أجلها السفر والبحر والخطر .. فقد تزوجها بعد ذلك وكانت نعم الزوجة والخدين والشريك ..

وانتهى المهندس من مطالعة هذه القصة القديمة ، وهو يقول لنفسه : أم شلبى .. هذا الفيل الآدمى .. من يدرى .. لعلها هى الأخرى تحملنى غدا إلى تلك الأسرة التى أجد فى فتاتها ضالتى ! .. وطلع الصبح . وانتصف

النهار .. وجاءت الخاطبة تحمل فى ملاءتها ، صورة فى إطار ، أمسك بها المهندس متلهفا وتفرس فيها مليا .. ثم طفق يقول كالمخاطب لنفسه : « نعم .. لا بأس .. حقيقة إنى أردت امرأتى هكذا ! » وسحبت أم شلبى الصورة من يده برفق ، قائلة له إنها ستقع فى الحرج إذا تفقدوا الصورة قبل ردها .. وأن عليها الآن أن تعود بها فورا لتضعها فى مكانها .. وأن ما يجب عليه عمله منذ الساعة وقد راقته الفتاة أن يمضى قدما إلى أهلها فيعرض طلبه ، قبل أن يرتبطوا بالخاطب الآخر ، وإذا شاء فإنها تدبر له موعد المقابلة مع أبيها فى أقرب وقت .. فقال لها : « نعم ، أسرعى ، الخير فيما اختاره اللّه .. »

لم يمض يوم حتى عادت أم شلبى تلهث وتدعوه إلى زيارة والد العروس ، عصر ذلك اليوم ، وتوصيه أن يكون حريصا على الذهاب فى الموعد المحدد بغير إبطاء ولا تأخير ، فإن أهل الفتاة رفضوا بادئ الأمر الكلام فى شأن أى خاطب جديد فهم قد رضوا عن الخاطب الأول ، ولم يروا مبررا لترك هذا الباب مفتوحا بعد ذلك ، ولكن الخاطبة بذلت أعظم الجهد فى إقناعهم بمقابلة هذا المهندس الكفء ، فمن يعلم أين النصيب ؟ وما ضرهم أن يأذنوا له فى زيارة قصيرة ، لقد احتالت وصنعت ما استطاعت لتفتح له ذلك الطريق المغلق ، فلم يبق إلا أن يصنع هو ما يستطيع ليقنع والد البنت ، وهو شيخ وقور متقاعد من رجال الجيش ، دقيق فى نظامه ، صارم فى أحكامه ، فقال المهندس للخاطبة : « لا تخافى . فى الساعة الخامسة بالضبط أكون هناك ! » . وقد بر بوعده ، فما أزفت الرابعة والنصف

حتى كان قد تهيأ وتجهز وارتدى خير ثيابه ، ووقف أمام المرآة يضع منديله الحريرى فى جيب الصدر ، وينظر إليه وقد تدلى وتهدل ، فرأى أن يخفى بعضه ولا يبرز غير طرفه ، اعتدالا فى ادعاء الأناقة ، واقتصادا فى إبداء الخيلاء ، ورضى عن مظهره .. فنزل إلى الطريق قاصدا بيت العروس ، وسار فى الشارع وكل شىء فيه مبتهج فرح ، وقد غمر الاطمئنان قلبه فبدد حيرته ، لقد انتقى له القدر شريكته ، فلم يبق إلا أن يتقبلها منه شاكرا ، آه للإنسان ! ما أشد عجزه ! هنالك مسائل لا يرتاح إلى حلها إلا إذا سقط عليه المفتاح من السماء ! وهنالك مواقف يواجه فيها الإنسان مفرق طرق ، فلا يسعفه إلا دفعة فى ظهره من يد القدر نحو إحداها .. كانت مثل هذه الخواطر تجول فى ذهن المهندس وهو يواجه مفرق طرق « ميدان سليمان باشا » وإذا فجأة يحس دفعة فى ظهره شديدة قاصمة قد طرحته على الأرض ، وإذا شىء كالعجلات يمر فوق جسمه .. وكان هذا مبلغ وعيه لكل ما حدث ..

ليس يدرى على التحقيق كم من الزمن مضى عليه وهو فى إغمائه ، لكنه عندما تنبه وجد نفسه على فراش وثير فى سرير مستشفى ، وجسمه كله مغلف بالأربطة الصحية وقد سمع من يهمس حوله قائلا : «لا تتحرك» فحول بصره جهة الصوت ، فرأى طبيبا وممرضا وممرضة فى ثيابهم البيضاء ، وقد علم منهم أنه قد أجريت له عملية « جراحية » وأنه قد كسر له ضلع ، وأنه فى هذا المستشفى منذ أيام ، وأن حالته كانت خطرة بادئ الأمر ، ولكن الخطر زال الآن ، وهو لا يدرى ما الذى حدث حتى وصل إلى هذه

الحالة ، وأحب أن يستفسر فمنعه الطبيب من بذل أى حركة أو جهد .. ولم يسمح له إلا بالرد المقتضب على أسئلة رجال الضبط الذين جاءوا لسماع أقواله في الحادث ، وقد أجابهم بأنه لم ير شيئا .. لا السيارة التى صدمته ولا لونها ولا سائقها ، فختموا محضر تحقيقهم وانصرفوا عنه ، وتأمل هو حاله لحظة واكتفى بالهمس فى أعماق نفسه :

ـ ضلع مكسور ! .. هذا كل ما وصلت إليه .. أنا الآن « كسر » بحق دون أن أظفر مع ذلك بالتى تكملنى !

ثم ذكر آخر يوم كان فيه صحيحا .. وكان سائرا إلى بيت العروس ترى ماذا تم فى هذا الأمر ؟ أترى الفتاة ما برحت من نصيبه ؟ أم أن الخاطب الأول قد سبقه إليها ، بينما هو طريح ، كالجواد الذى سقط فى ميدان السباق ؟ كيف السبيل إلى معرفة النتيجة ؟ لو استطاع على الأقل أن يبعث فى طلب « أم شلبى » ليعلم منها ... ولكن ما الحيلة فى هذا الطبيب الذى يمنعه من الكلام والحركة ؟ فليصبر يوما آخر أو يومين .. يا لسوء حظه إذا كان قد فقدها بسبب هذا الحادث ! الويل للجانى الذى صدمه عند ذاك . إنه لن يغتفر له أبدا .. لا كسر ضلعه ، بل تلك الطامة الأخرى ، ضياع نصفه الآخر بعد أن عثر عليه ..

وحانت منه التفاتة إلى ما حوله ، فوجد ما أدهشه : باقات من الورد والأزهار الغالية في الآنيات ، وقارورات فاخرات من ماء « الكلونيا » ، وكتب مجلدة مذهبة لقتل الوقت ، وصناديق ثمينة مفعمة بالحلوى ومملوءة بالسجاير .. وكل ما يمكن أن يهدى إلى مريض معزز مدلل . عجبا ! . من هذا

الذى يهتم بترفه كل هذا الاهتمام ، ويعنى بشخصه كل هذه العناية ؟! وسأل طبيبه بإيماءة من عينه عمن أحضر كل هذه الهدايا .. فلم يزد الطبيب على أن قال بسرعة وبلهجة من يقول شيئا معروفا للجميع :

ـ الست .

والتفت الطبيب إلى مرءوسيه يصدر إليهم الأوامر الأخيرة قبل انصرافه . وغادر الجميع الحجرة من فورهم ، تاركين المريض مستغرقا فى الدهشة : « الست » ! ومن هى هذه « الست » ؟! وعادت الممرضة وفى يدها أنبوبة زجاجية وحقنة ، ملأتها ثم وخزت المريض بإبرتها .. فانتظر حتى فرغت من عملها ، فسألها أن تحدثه قليلا عن تلك « الست » .. وكانت الممرضة ثرثارة .. فتدفقت تصفها بأنها أجمل وأكرم سيدة رأتها ..

وطفقت تخبر المهندس المريض بطائفة من التفاصيل لم تزده إلا عجبا واستغرابا ، فهذه « الست » الحسناء تأتى كل يوم لتسأل عن صحته ... وهى فى كل مرة تأتى بالأزهار الجميلة ، وتضع النقود فى أيدى ممرضيه بسخاء وترجوهم أن يخصوه بكل عنايتهم ، وأنها كانت فى ساعات الخطر الأولى تسأل عن تطورات حالته في جوف الليل بالتليفون عدة مرات .. وأنها حضرت « العملية الجراحية » منتظرة فى حجرة مجاورة كى تطمئن على عواقبها . وأنها أصرت على استدعاء « كونسولتو » من الأطباء قبل إجرائها لتزداد اطمئنانا وأنها دفعت نفقات كل ذلك من جيبها بدون تردد .. بل الأعجب أن وجوده فى هذا المستشفى فى هذه الحجرة من الدرجة الأولى الممتازة بكل ما يلزم له من علاج وغذاء ورفاهية وترف هى التى

تتولى نفقاته ، وأن المال يسيل من بين أصابعها كالماء في هذا المستشفى من أجله .. ولا هم لها ولا تفكير إلا في شيء واحد : « إنقاذ حياته بأى ثمن » .. تلك هي كلمتها التي ترددها كل يوم وكلما جاءت .. ولكل من تقابل من أطباء وممرضين .. وختمت الممرضة حديثها قائلة ببساطة :

– طبعا .. زوجتك .. طبيعى أنها تهتم بحالتك وتضحى بكل شىء ! .. إن شاء الله أبشرها بالأخبار السارة عن قريب ! ..

وخرجت من الحجرة مسرعة ، وتركته يقول كالمخبول :

– زوجتى ! ؟

وجعل يعالج حل هذا اللغز ، إلى أن اهتدى إلى رأى شبه معقول :

لعل هذه « الست » التي يحسبونها هنا زوجته ليست في حقيقة الأمر سوى تلك الفتاة « العروس » التي كان ذاهبا لخطبتها . ولعلها علمت بالحادث ، وأثر في نفسها ما وقع له وهو في طريقه إليها . فحملها ذلك التأثر الشديد لهذا الإخلاص كله على العناية به . إذا كان ذلك حقا فهى إذن الشريكة المنشودة . نعم ما أكرم نفسها ! وما أسعده بمثلها ! ثم لماذا تتحمل هى نفقات علاجه ؟ أتراها اعتبرت نفسها زوجته منذ الآن ، لمجرد أنه كان ذاهبا يطلب يدها ؟ .. إذا كان هذا ما وقع في نفسها ، فإنه ليقرها عليه .. فهو أيضا يعدها زوجته من الآن .. بل منذ اللحظة التي سقط فيها تحت السيارة من أجلها .. يالها من زوجة عزيزة .. إن رسمها في رأسه الساعة مشوش مختلط .. ولكنه مع ذلك يذكر بعض ملامحها التي

شاهدها فى الصورة ذات الإطار .. لابد له على أى حال أن يراها سريعا ، ليشكرها على الأقل . وانتظر حتى جاءت الممرضة فقال لها :

- أريد أن أرى .. زوجتى .

فأجابته الممرضة بأنها لم تحضر بعد ، ووعدته بأن تدخلها عليه تـوا عنـد حضورها . ولبث المريض يعد فى انتظارها الدقائق ثم الساعات ، ثم جـاءه الليل ، ثم مر يوم وثلاثة وأربعة .. دون أن يسمع من الممرضة سوى ألفاظ الدهشة والاستغراب . فهى أيضا تعجب لاختفاء هذه السيدة الآن .. بعـد أن كانت تجىء المستشفى فى اليوم مرتين .. ووقع المهندس لافى الهم والغم وحدهما بل فى الحيرة أيضا والحرج .. بماذا يعلل للممرضة وللآخرين هذا التصرف العجيب من زوجته المزعومة ؟ . فآثر الصمـت أمـامهم والإقـلاع عن ذكرهم . ولكنه ظل الأيام يحاول عبثـا أن يكشـف لنفسـه حقيقـة هـذا السر . إلى أن بدرت ذات يوم من الطبيب بادرة أنارت قليلا هـذا الأمـر . فقد قال له وهو يفحص ضلعه المكسور :

- حالتك الآن على ما يـرام . تسـتطيع الآن أن تضطجـع علـى وسـادة خلف ظهرك ، وأن تتكلم كما تشاء .. وأن تقرأ هـذه الكتـب والصحـف والمجلات التى ترسلها لك الست ..

فصاح المريض كالغريق الذى وجد خشبة :

- الست ؟ .. أين الست ؟ ..

فقال الطبيب باسما :

ـ إنها الآن مطمئنة غاية الاطمئنان بعد أن أكدت لها منذ أسبوع زوال كل خطر ..

ـ ولكنى .. أعنى .. هل حضرت ؟

ـ لا .. لقد قالت لى فى آخر مرة أنها لم تعد ترى ضرورة للحضور ، مادام الخطر قد زال .. وأنها تكتفى الآن بالسؤال عن الحالة بالتليفون مرة كل يومين أو ثلاثة ..

ـ هل أستطيع أن أكلف أحدا بطلبها بالتليفون ؟

ـ بالتأكيد .. أعط رقم التليفون للممرضة وهى تقوم بذلك فى الحال إذا شئت .

ـ رقم تليفون « الست » معروف هنا طبعا ..

ـ لا أظن .. إنها هى التى تطلبنا دائما .. ومع ذلك ألا تعرف أنت الرقم ؟ ..

ـ آه .. طبعا .. طبعا ..

وضحك ضحكة يخفى بها ورطته .. وانصرف الطبيب ، وتركه يتخبط فى ظلام أكثف مما كان فيه . من هذه السيدة التى تعطف عليه كل هذا العطف وهو فى الخطر ، فإذا انقشعت غمته وتحسنت حالته ، انصرفت عنه فى غير اكتراث كأنها لا تعرفه ؟! ثم كيف يتصل بها الآن والمسالك دونها موصدة ؟ ونادى الممرضة ورجا منها أن تبحث فى إدارة المستشفى وفى كل مكان عن عنوان « الست » أو رقم تليفونها . موهما إياها أن زوجته هذه تتعمد إخفاء مكانها عنه وتتكلف هذا التصرف معه ، لأسباب

خاصة ، لكن الممرضة لم تعثر لهذه السيدة على عنوان معروف ولا على رقم تليفون .. وكل ما يعلمونه عنها فى المستشفى أنها هى التى تحضر وهى التى تستفسر دون أن تترك خلفها أثرا .. ولم يجد المريض آخر الأمر غير وسيلة واحدة .. ما كاد يهتدى إليها حتى صاح فرحا كمن وجد الفرج .. والتفت إلى الممرضة قائلا :

ـ اسمعى !.. أرجوك .. إذا سألت عنى « الست » بالتليفون فى المرة القادمة ، فأخبريها أنه قد حدثت لى نكسة ، وأنى لن أعيش أكثر من ساعتين !

فترددت الممرضة . فأقنعها بورقة مالية دسها فى كفها .. فقبلت المجازفة بهذه الأكذوبة لوقت محدود . ومضى يومان .. وإذا الممرضة تدخل على المهندس مهرولة لاهثة وهى تقول :

ـ تكلمت ..

ـ صحيح ؟ .. تكلمت ؟ ..

قالها وقد كاد قلبه يثب من جوفه . فأكدت له الممرضة أن « الست » تكلمت الساعة بالتليفون لتستفسر ، فأجابتها بالرد المتفق عليه ، فذعرت وألقت بالسماعة ، وهى قادمة بعد دقيقتين . فلم يدر المريض ما يصنع من الفرح .. ومد يده على غير وعى منه يلتمس زجاجة عطر الكلونيا ليتطيب .. وهو يوصى الممرضة أن تدخلها عليه للفور ، وألا تنسى أنه يحتضر .. وخرجت الممرضة تستقبل القادمة ولم يمض قليل حتى سمع المريض صوت المرأتين يقترب .. فأغلق عينيه نصف إغلاق ، واستلقى بلا حراك ومثل

دور من يموت .. ودخلت « زوجته » المزعومة وتسمرت بالعتبة تنظر إليه شاحبة الوجه .. فكاد ممثل الموت يموت حقا .. من هذه المرأة ؟ إنها ليست صاحبة الصورة التي في الإطار !.. هو الذى وطن النفس وأعد الذهن لرؤية امرأة يعرفها .. أو يعرف رسمها على الأقل ؟ ها هو ذا أمام امرأة جديدة لم يرها قط في حياته ، ولا يدرى عنها شيئا .. وانهار كل ما كان قد بناه في لحظة . فليست هذه المرأة بالعروس التي كان ذاهبا لخطبتها .. وليست هذه العناية وهذا الاهتمام وليد تلك الأسباب التي كان قد رتبها واستنبطها واستنتجها . هذه امرأة غريبة عليه وعلى ذهنه وفكره .. لم يرها من غير شك في الماضى ، ولم يصادفها في حقيقة أو خيال .. فمن تكون ؟ ومن أين طلعت له ؟ وما سر عنايتها به ولهفتها عليه .. وقلقها في ساعات أزماته .. وتكلفها جميع نفقاته ؟ . هذا هو اللغز الذى فاق جميع ما عداه . ولكن هذه المرأة التي لم يعرفها ولم يرها .. ما أجملها ! إنه تخيل فعلا يوما ما نوعا من الجمال تمناه في امرأته .. ولكنه لم يستطع تخيل حسن كهذا .. إنه لكثير عليه هذا الجمال .. ثم ما أروع وجهها في هذا الشحوب .. لقد شحب وجهها هكذا حزنا عليه .. أهو في يقظة حقا ؟ .. ثم ماهذا الذى يرى .. ياللعجب ! . إنها دمعة فضية تترقرق في عينيها الواسعتين كأنها قطرة ندى . ولم تتحمل الحسناء المها — فيما يبدو — أكثر من ذلك . فاندفعت خارجة من الحجرة ، وهى تمسح دمعتها بأناملها القرمزية بالأصداف ، والممرضة في أثرها .. ولم يبد المريض حركة ولم يلفظ همسة فقد أذهله ما رأى عن كل شىء .. ولم يثب إلى رشده ، وتستيقظ له إرادة ،

إلا بعد أن عادت إليه الممرضة وحدها راجية ملحة فى الرجاء أن يكف عن هذه الأكذوبة ، وأن يسمح لها أن تخبر الحسناء بالحقيقة ، قبل أن تتحرج الأمور ، ويبلغ إدارة المستشفى الأمر ، فتتعرض هى للمؤاخذة ، ذلك أن «الست» تصر على استشارة الأطباء ، وبذل كل عطاء لإنقاذه من الموت ، ولم تنتظر الممرضة رأيه أو جوابه .. وأقبلت عليه تعينه على الاستواء قليلا .. وتضع الوسادة خلف ظهره ، وجذبت إحدى المجلات المصورة ودفعت بها إليه ، وأعلنته أنها ذاهبة تخبر « الست » بالحقيقة ، وتعود بها لتراه وهو فى حالته الحقيقية .. وخرجت عنه وهو مضطجع كالطفل الذى لا إرادة له ولا عزم ... المتقبل كل ما يجرى له ويفرض عليه .. وأخذ يعبث بصفحات المجلة المصورة بعين زائغة وفكر شارد . وإذا بصره على الرغم منه يقع على صورة يعرفها .. عجبا !. إنها صورة للعروس التى رأى رسمها فى الإطار .. نعم . هى بعينها فى ثياب العرس البيضاء وإلى جانبها شاب فى ثياب السهرة « الفراك » وتحت الصورة عبارة « قران بهيج » .. لقد زفت إذن إلى خاطبها الأول .. حسنا فعلت ، إنه لا يأسف الآن عليها كثيرا .. وأرسل بصره إلى الباب نافد الصبر معلق الأنفاس .. وإذا الممرضة تدخل وهى تجذب الحسناء جذبا رقيقا إلى داخل الحجرة ، وقدمت إليها مقعدا بجوار السرير ، وانصرفت فى الحال .. ومر كل ذلك مرا خاطفا ، فلم يشعر المهندس بالحسناء إلا وهما منفردان وجها لوجه ، ولم يكن من اليسير أن يجد أحدهما الكلام الذى يبدأ به .. فوقعا أول الأمر فى صمت عميق محرج .. قطعته الجميلة قائلة ، وكأنما تتنفس الصعداء :

ـ أف ! الحمد لله على أنك بخير ! لقد كاد يغمى عليّ الساعة عندما حسبتك تموت !..

فرنا إليها وإلى فمها وهى تنطق هذه الكلمات ، وكأنه لا يصدق أن هذا القول موجه إليه . ثم تمالك قليلا وقال لها :

ـ حياتى شيء مهم عندك ؟

ـ جدا .

ـ لا يوجد غير تعليل واحد لكل هذا ، أنى مت حقيقة وانتقلت إلى جنة الخلد ، وما أنت إلا حورية مكلفة بملاطفتي .. ولكن .. أين الشجر والثمر والكوثر . ولماذا هذا السرير والممرضة والمستشفى !!

ـ لا .. أنت من حسن الحظ حي .. لأنك لو كنت مت ودخلت جنة الخلد ، كنت أنا دخلت السجن .

ـ السجن ؟ وما المناسبة ؟!

ـ آن الأوان أن أعترف لك يا سيدى بجريمتى .. أنا التى صدمتك بسيارتى .. وإنى بالطبع متأسفة جدا . ولكنه القدر .. أقوى منا ومن إرادتنا . كنت مسرعة وهذا خطير منى ولا شك ولكنى كنت مدفوعة برغبتى فى شراء ثوب حريرى رأيته فى الصباح وخفت أن تسبقنى إلى شرائه أخرى . وعندما مرت العجلات على جسدك .. لم أقف ومضيت فى السير بعين السرعة .. لا عن قسوة منى ونقص فى المروءة .. بل عن خوف شديد استحوذ عليّ .. لقد هربت من جسدك الملقى على الأرض كمن يهرب من شبح . وعدت توا إلى بيتنا غائبة العقل . ورأتنى والدتى فهالها

اضطرابى ، وقصصت عليها ما حدث ، فنصحتنى أن أخبر والدى بكل شىء . وهو من رجال القضاء . فلما سمع والدى القصة حار هو الآخر فيما ينبغى عمله . فإن التبليغ عن هذا الحادث معناه التعرض للحكم إذا مات المصاب ، كما قال لى ، وإذا لم نبلغ فإننا نتحمل تقريع الضمير طول حياتنا ، وإن كرامته كقاض تمنعه من أن ينصح أحدا ولو كان ابنته بالهرب من العدالة .. وإن حنانه كأب يمنعه كذلك من أن يدفع بابنته الوحيدة إلى السجن .. وانتهى به التفكير إلى أن ترك لى حرية التصرف . بعد أن أفهمنى كل النتائج المحتملة لهذا الفعل .. وجعل يعنفنى على جنونى فى سرعة القيادة . ونصحنى أخيرا أن أتتبع حال المصاب على الأقل وأن أعمل على علاجه وإنقاذه .. فإنه إذا شفى لن يقع علىّ من العقاب أكثر من غرامة مالية ؛ ولهذا بادرت أسأل أقسام البوليس عن المصاب فى حادث السيارة عصر ذلك اليوم فى ميدان سليمان باشا .. إلى أن اهتديت إليك .

وأصغى المهندس إلى حديثها ، وكأنه يهبط رويدا رويدا من السحاب حتى لاصق التراب . ومافرغت روايتها .. حتى نظر إليها قائلا :

ـ يالك من مجرمة أثيمة !.. كسرت ضلعى ، وأضعت خطيبتى ، وبددت أحلامى !. وكل هذا لن تعاقبى عليه بأكثر من غرامة مالية !

ـ لأنك شفيت والحمد لله !

ـ أنا شفيت ! وما قيمة شفائى ؟ إن موتى الآن خير من حياتى .. أكل هذا العطف الذى نلته منك .. وهذه الدمعة التى سقطت من عينيك ، وهذا الشحوب الذى بدا عليك لم يكن من أجلى ولا خوفا علىّ ، بل خوفا

على نفسك من الحبس ؟!. اسمعى أيتها الآنسة .. أو الست .. أو الزوجة المزعومة .

ـ الزوجة ؟

ـ طبعا .. وماذا تريدين أن يكون ظنهم هنا بسيدة مثلك تعنى هذه العناية برجل مثلى ؟ لقد خطر فى بالهم بالضرورة أنك زوجتى ، ولم يخطر فى بالهم أنك قاتلتى !

ـ لا تقل إنى قاتلتك .. فهأنت ذا الآن فى صحة جيدة .

ـ كم كنت أتمنى أن أموت لتدخلى أنت الحبس ..

ـ إلى هذا الحد تبغضنى ؟

ـ هل أبلغت الحكومة أنك أنت الجانية ؟

ـ لم أبلغ بعد .. لقد رأيت أن أنتظر حتى تشفى ..

ـ وإذا كنت مت ؟

ـ كنت ذهبت وقدمت نفسى للبوليس .

ـ أأنت واثقة أن القضاء كان يحكم بحبسك فى حالة وفاتى من الحادث ؟

ـ كان ذلك مرجحا لأنى من أرباب السوابق .

ـ أنت ؟ من أرباب السوابق ؟!

ـ نعم .. فى حوادث السيارات .. سبق لى أن صدمت حمارا محملا بالحطب فى طريق عزبتنا فى صيف العام الماضى ، ومنذ ستة أشهر صدمت حمارا آخر يحمل قصبا فى سكة الهرم .

ـ حضرتك أخصائية فى صدم الحمير ؟!

فنظرت إليه وهو مغلف فى أربطته الصحية .. وضحكت ولم يفطن هو إلى « النكتة » ومضى يقول :

ـ أيتها الجانية .. أنا بصفتى المجنى عليه ، لابد أن يسمع رأيى فى جريمتك . هل تريدين حكمى أو حكم المحكمة ؟

ـ حكمك .

ـ حكمت عليك بالحبس .

ـ تريد حبسى ؟!

ـ فى أحضان الزوجية .

فنظرت إليه وابتسمت ابتسامة المحكوم عليه الذى رضى بالحكم ولن يستأنفه أو يناقض فيه .

* * *

مضى عام على زواجهما ، فأدرك المهندس أن « القدر » حقا قد عرف كيف يهديه إلى « طبقه » وشطره ونصفه وزوجته المثلى .. وقد آمن أن للقدر من الوسائل أحيانا ما لا يخطر على بال البشر .. وهل كان مثله يتصور أنه سيلقى شريكته يوما بهذه الطريقة ؟! إن كلمة « النصيب » التى يذكرها الناس دائما فى بساطة ليست إلا مظهرا من مظاهر فن « القدر » العجيب فى تدبير مصائر الآدميين ..

واحتفلا فى المساء بمرور العام على ذلك الزواج ، فهمس فى أذن زوجته قائلا :

ـ كان لابد لحواء أن تأخذ من آدم ضلعا حتى توجد ، وكان لابد لك من أن تكسرى لى ضلعا حتى أجدك !

كليوباترة وماك

من أسرار الحرب الأخيرة التى لم يكشف بعد عنها النقاب ما أرويه الآن . وما من صحيفة فى العالم نشرت هذه القصة الغريبة ، التى قد تصدم منطق الإنسان فى القرن العشرين . ولكن هذا لا يمنع من أنها وقعت بالفعل . وأرجو ألا يسألنى سائل عن مصدر علمى بها . فهذا ما أقسمت ألا أبوح به لأحد .

كان ذلك فى عام ١٩٤٤ ، فى جزيرة ما بالمحيط الباسيفيكى اتخذها الجنرال « ماك آرثر » مقرا لقيادته فى حربه ضد اليابان بعد أن اضطر إلى الجلاء عن الفيلبين ..

كان المساء جميلا . والشفق مازال يدمى على صفحة سماء بيضاء كرداء العروس ، والنسيم يهب رقيقا من البحر الهادئ النائم ..

وكان « ماك آرثر » جالسا فى شرفة مقره بمفرده ، وقد غرق فى مقعد من القماش كمقاعد الشواطئ ، وأرسل رأسه إلى الوراء على المسند وراح فى شبه إغفاءة .. تحت وقر التعب والإجهاد ، وثقل الأعباء والتبعات ..

لم ينم طويلا . فقد استيقظ فجأة على صوت مجاديف تمس الماء كما يمس المرود الجفن ، وموسيقى تحملها الريح ، وعطور تتضوع فى الهواء .. ففتح عينيه ، فإذا هو أمام منظر عجيب : سفينة من سفن العصور القديمة ، تتهادى فوق الأمواج مقتربة .. مؤخرتها من الذهب ، وشراعها من

الأرجوان ، ومجاديفها من الفضة ، تتحرك على نغم المزامير .. وفى مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأنها إلهة ، يحرق بين يديها بخور وينتشر عبير ، يلعب بالرءوس ويسحر النفوس ..

نزلت تلك المرأة من السفينة ، ومشت وكأنها تخطر فى الهواء .. نحو مركز القيادة ، وهى تقول :

ـ « مارك أنطونى » :

ففرك الجنرال الأمريكى عينيه وهو يقول :

ـ أنا « ماك آرثر » !

ـ نعم ، أقصد « ماك آرثر » .. إليك جئت ، وأنت الذى أريد ..

ـ من أنت ؟

ـ أنا كليوباترا .

ففحصها القائد بنظره مليا .. وتأمل ثيابها ودمقسها ودمالجها ولآلئها .. ثم التفت إلى سفينتها العجيبة ، وهز رأسه باسما وقال :

ـ فهمت ، فهمت . إنما الذى أعجب له هو : كيف استطاعت هوليوود أن تعمل فى هذه المنطقة الحربية بدون علمى ؟ وكيف حصلت على إذن فى ارتياد هذه المياه الممنوعة لإخراج الأفلام التاريخية ؟ وما هى السلطات المختصة التى يمكن أن تتحمل هذه المسئولية دون الالتجاء إلى رأيى ؟! هذه مسألة خطيرة ياسيدتى ، لا يحسن الإغضاء عنها ..

ونهض ، وعلى محياه جد وصرامة .. وأراد دخول مكتبه ليتحرى الأمر فاعترضته الزائرة العظيمة ، ووقفت بجلالها الملكى ، وقالت بصوتها

الملائكى :

ـ قلت لك أنا كليوباترا ، ملكة مصر . جئت إليك من العالم الآخر . ولعلها أول مرة يحدث فيها ذلك ، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت . إن عصركم اليوم عصر تقع فيه أعاجيب ، ولكن الأعجوبة الكبرى هى تمكنى من العودة إلى الدنيا .. كيف تمكنت ؟ هذا مالا شأن لك ولا لى به . وأنا لم أحضر لأطلعك على أسرار الموت والحياة . ولكننى أريد أن تصدقنى .. فلأقل لك إذن ببساطة كيف تم هذا ، بطريقتكم ولغتكم التى تفهمونها : إننا بعد موتنا نتلاشى روحا وجسدا كذرات فى الفضاء ... على أن المتعذر دائما هو جمع هذه الذرات ، من الكون ، مرة أخرى فى عين الجسد وعين الروح . لقد استطعتم بجهاز الراديو أن تجمعوا من الفضاء أصواتا وتنقلوا صورا ... ولكن أين للموتى ذلك الجهاز الذى يجمع ذراتهم المتناثرة ، فى كيانهم القديم وصورهم الغابرة ؟ لابد أن توجد قوة هائلة تجذب هذه الذرات وتجمعها . لقد حدثت هذه المعجزة فيما يختص بى .. لقد كنت أنت هذا الجهاز ، أو هذه القوة التى جذبتنى ، بدون أن تشعر أنت أو تعى ، إنك لا تدرك أى شبه بينك وبين حبيبى السابق « مارك أنطونى » !

قالت ذلك ، و « ماك آرثر » يصغى إليها مشدوها . لكأن إرادته قد فارقته .. يدرك هذا من قرأ « بلوتارك » المؤرخ اليونانى حين وصف كليوباترا .. إنها ، على حد قوله ، لم تكن فى الجمال بالغة مالم يبلغه غيرها من الجميلات ، ملاحة وجهها لم تكن وحدها مبعث فتنتها التاريخية ، إنما هو حديثها الذى كان ينفذ فى القلوب كالشوكة . كان صوتها هو العذوبة ،

ولسانها قيثارة متعددة الأوتار . تعالجها برشاقة وتمسها بلباقة ، في مختلف اللغات واللهجات . إن مقاومة سحر حديث كليوباترا كان هو المستحيل ..

وهمس القائد الأمريكي كالمخاطب نفسه :

ـ مارك أنطوني !

ـ نعم .. ما أعجب الشبه بينك وبينه ! في وجهه وأنفه وقوامه .. ومشيته ! بل ما أشبه دولتك بدولته .. لقد كان الرومان فاتحي العالم بالسيف ، واليوم الأمريكان هم فاتحو العالم بالدولار . كان للرومان مجلس شيوخ و « قيصر » .. وللأمريكان مجلس شيوخ و « روزفلت » ..

* * *

من اللغو أن نطيل ... فمن البديهي أن نقول : إن « ماك آرثر » وقع في حب « كليوباترا » .. وهل دنا منها أحد دون أن يسقط في أتون غرامها ؟ منذ ذلك المساء وهما لا يفترقان .. كانت معه كما كانت مع « مارك أنطوني » في أول حبهما .. لقد قيل إنها والقائد الروماني كانا متلازمين الليل والنهار . كانا معا يهيمان في الطرقات أحيانا يمرحان ويلهوان ... هي متخفية في زي وصيفة وهو في زي وصيف .. أما اليوم فإنها تلازم القائد الأمريكي في زي « ضابطة » من المجندات ، وقد ألحقت بمكتبه . وهو وضع طبيعي .. وهل يثير التفات أحد أن يكون للجنرال الأمريكي « سكرتيرة » مجندة في ردائها العسكري ؟

لم يكن شيء يعكر صفو حبهما غير شبح .. هو دائما عين الشبح : الزوجة .

فيما مضى كانت هي « فولفيا » زوجة « مارك أنطوني » التي هجرها في إيطاليا . واليوم هي مسز « ماك آرثر » التي تركها في أمريكا ..

يا له حقا من تشابه عجيب !

كلاهما زوج وأب ، بعيد عن بلاده . وكلاهما يحزن كليوباترا ويزعجها كلما فكر في العودة إلى امرأته وأولاده . ولم تلبث مخاوفها أن تحققت . فها هي ذي المعركة الانتخابية تقوم في أمريكا لاختيار « الرئيس » ورشح « روزفلت » للمرة الرابعة . ولكن نفرا قاموا من جهة أخرى يرشحون أمامه « ماك آرثر » .

هنا نهضت « كليوباترا » تدرأ عن حبها الخطر ، فاستعانت بقوة سحرها ونفاذ فتنتها لتصرف « القائد الأمريكي » عن هذه الفكرة ، كما صرفت من قبل « القائد الروماني » عن الذهاب لمحاربة قيصر ..

لعل هذا هو السر الحقيقي في انسحاب « ماك آرثر » من معركة الانتخابات الأمريكية !

وهكذا ظفرت « كليوباترا » باستبقاء حبيبها إلى جانبها وأقصته عن زوجته ووطنه وذويه ..

على أنها كانت هذه المرة ذات فأل حسن وأثر طيب على القائد الأمريكي . فقد حفزه قربها وألهبه ، فتوالت انتصاراته . وصار يثب من جزيرة إلى جزيرة خلف اليابانيين . يطردهم منها ويستولى عليها . وهو لا يرهب شيئا إلا أن يبدو مندحرا أمام « كليوباترا » .. حتى تم له الفوز

الأخير . واستسلمت اليابان .. ودخل « ماك آرثر » طوكيو دخول الفاتحين ..

ومرت أيام لم ير القائد أجمل منها . وفي ذات عصر وقفت « كليوباترا » بجواره وأرسلت بصرها إلى البحر ، وقالت :

ـ أتدرى يا « مارك » .. أقصد يا « ماك » .. ما الذى يجول فى خاطرى ؟

ـ ماذا يا « كليو » ؟

ـ أتذكر يوم جئت إليك تحملنى تلك السفينة الجميلة ؟ لقد كانت هى عين السفينة التى ذهبت فيها إلى « مارك » فى « طوروس » وقد استدعانى لأقدم حسابا عما نسبوه إلىّ من معاونتى لأعدائه . ولقد أحب أحدنا الآخر بعدئذ . ولكن برغم ذلك .. أى إذلال وهوان أن يستدعى رأس متوج ليمثل أمام قائد منتصر !

ما قولك يا « ماك » لو استدعيت إمبراطور اليابان ليمثل بين يديك ؟

فأجفل « ماك آرثر » قليلا لهذه الفكرة .. إنه لا يجهل خطورة الإقدام على هذا العمل الجرىء . إن « الميكادو » شبه إله فى قومه .

ونظر إلى حبيبته مترددا متوجسا .. ولكنها استقبلت عينيه بنظرة منها أسكرته . فأحس قوة تدب فى قلبه دبيب الخمر .. وقال :

ـ سأفعل !. سأفعل يا كليو !

ولم تمض أيام حتى كان الإمبراطور بقبعته العالية الرسمية السوداء ، ماثلا أمام « ماك آرثر » فى مقر قيادته وهو بقميصه الكاكى .. واهتز العالم لهذا

الحادث !

واستمرت بعد ذلك اللحظات السعيدة ، يرتع في ظلها الحبيبان ، ويضحكان ويلعبان ..

وخرجا ذات يوم للصيد فى خليج طوكيو .. وكاد النهار يولى و « ماك آرثر » لم يظفر بسمكة . وخجل من الهزيمة أمام حبيبته العظيمة ، فغافلها واتفق مع أحد الصيادين الحاضرين ، على أن يغوص فى الماء ويضع فى سنارته سمكة من صيده الطازج ، ونفذ الاتفاق ، وجذب القائد سنارته ، فإذا بها سمكة كبيرة ، أراها لحبيبته مزهوا .. ولكن كليوباترا لم تكن بالغافلة .. وأعدت للغد عدتها . واتفقت هى الأخرى مع الصياد سرا .. فلما جاء الغد ، وضع « ماك » سنارته فى الماء إلى أن شعر بثقلها فجذبها .. وإذا بها : سردينة كبيرة مملحة مما يباع فى صناديق البقالين ..

ارتفعت عندئذ قهقهة الحاضرين . وكاد القائد الأمريكى يغضب ، لولا قول كليوباترا البارع اللبق :

ـ أيها القائد الظافر ! .. مالك وصيد السمك ؟ اتركه لنا نحن العاديين والعاديات ! .. أما أنت فصيدك الجزر والمدن والملوك والإمبراطوريات !..

ما من إكليل غار يعدل هذا الإطراء من فم « كليوباترا » ! ..

عند ذاك ألقى « ماك » بعصا صيده ، وأقبل عليها وقلبه يقطر حبا ، وهو يهمس :

ـ يا عزيزتى كليو !

لكن الحب شديد النهم .. إنه يأكل كل شيء حتى نفسه ، إنـه لا يقنـع أبدا . ولا يعرف نهاية ولا حـدا . لقـد جعـل « مـاك آرثـر » همـه الأكـبر بعدئذ مطالعة كتب المؤرخين ، اليونان واللاتـين ، الذيـن كتبـوا عـن كليوبـاترا . وخرج من هذه القراءة بقلب نهشته الغيرة .. لقد تبين له أن أكثر كلمـات حبيبته التى تناجيه بها وتخلـب لبـه ، سـبق أن قالتهـا بنصهـا ولفظهـا لمـارك أنطونى !

ودخلت « كليوباترا » عليه يوما ، فـأبصرت فـى يـده كتـاب « بلوتـارك » مفتوحا على فصل يصف أخبارها . ففهمت لسـاعتها مـا يجيـش فـى صـدر حبيبها المقطب الجبين ، فابتدرته قائلة :

ـ أرجوك ألا تصدق ما يهرف به هؤلاء المؤرخون !

ـ كيف لا أصدق والعبـارات التـى أوردوهـا هـى عـين عبـاراتك التى أسمعها اليوم من شفتيك ؟

ـ اسمع يا مارك ..

ـ من فضلك .. أنا اسمى مـاك .. مـاك .. إلى متـى تظلين تخلطـين بينـى وبين الآخر ؟

ـ ثق أنى لا أخلـط .. وإنما لسـانى يغلـط .. هـذا طبيعـى . أولا تريـد للسانى أن يخطئ وهو الذى تعود ذلك الاسم منذ عشرين قرنا ؟! ..

ـ إياك بعد الآن أن تمزجى بيننا . تذكرى دائما أنك رأيته مندحرا . أما أنا فإنك رأيتنى منتصرا .

- نعم .. لقد كان حبى له شؤما عليه . أما حبى لك ، فكما ترى ، سعيد الطالع .. ولولاى لما انتصرت .. يجدر بك أنت أن تذكر دائما أنى عدت إلى الحياة من أجلك . هذا ما لم يحدث لبشر غيرك ! .

سكن عندئذ ثائر القائد الأمريكى واستقرت نفسه . ومضت أيام وهو هادئ مطمئن راض عن حبه . ولكن الحب لا يرضى ولا يطمئن .. لأنه إذا فعل ذلك نام ، وهو كالقلب إذا نام مات ..

ورنت فى رأس « ماك آرثر » عبارتها الأخيرة : « هذا ما لم يحدث لبشر غيرك » ! فردد مخاطبا نفسه ذات ليلة :

- حقيقة .. هذا ما لم يحدث من قبل .. هذا هو المجد الذى لم يبلغه بشر .. كليوباترا تعود إلى الحياة من أجلى ! .. ولكن من يعلم ذلك حتى الآن ؟ .. لا أحد سواى .. وما قيمة ذلك إذن ؟ ترى ماذا يحدث لو أذيع هذا الخبر العجيب ، ونشر فى صحف الدنيا : « كليوباترا بعثت لماك آرثر » !!

تلك هى المعجزة التى تتضاءل بالقياس إليها ألف أعجوبة مثل القنبلة الذرية ! ..

وتملكته هذه الفكرة واستحوذت عليه الليالى الطوال . لابد أن يكشف أمر كليوباترا للعالم المتحضر .. ولم يتمالك ففاتحها برغبته قائلا :

- اسمعى يا كليو ! ..

- إنى مصغية يا ماك ..

- أخبرينى .. هل فكرت فى المستقبل .. أعنى فى مستقبلك ؟

- مستقبلى ؟!

- نعم .. أتظلين هكذا دائما ضابطة مجندة في غمار المجندات لا يدرى بك أحد ؟ أنت أجمل وأشهر ملكات التاريخ تهبطين الدنيا ، ولا تشعر بك الدنيا ؟ تصورى ، لو أذيع أمر وجودك ، أى أقواس نصر تقام لك في كل مكان ،. إنهم في أمريكا يحسدون من يقترن بإحدى النبيلات ، فماذا هم قائلون يوم يرون « ماك آرثر » وفي ذراعه « كليوباترا » أبهى الملكات وألمع المتوجات ! ..

- أيها الأمريكي ، أهذا هو الذى يشغل بالك الآن ؟ .. أهذا هو مصير حبنا ؟ تريد أن تستخدمه أداة إعلان ؟

- بل أريد أن يكرمك هذا العصر .

- يكرمني ؟ أتدرى كيف سيكون تكريمي ؟ إنى أعرف ما ينتظرنى في بلدك . سأكون ملهاة للسياح ، يأتون لمشاهدتى من أطراف الأرض ، ومادة للصحفيين والمراسلين لا تنضب ، وموضوعا للنساء في الصالونات والحفلات والمسارح والسباق يثرن الإشاعات حولى ، وينهشن بألسنتهن لحمى ، ويتضاحكن ويتغامزن قائلات : « أهذه هى التى قال التاريخ إنها فتنت القواد والقياصرة ؟ ماذا فيها من حسن وسحر وإغراء يثير الرجال ؟ » .

- بل ثقى أنك ستكونين أعظم امرأة في زماننا هذا .

- أعظم امرأة ثروة . هذا محتمل جدا وجائز جدا .. فإن شركات الأزياء الكبرى في أمريكا ستتزاحم عارضة عليّ أبهظ الأجور لأروج لها أثوابها . وشركات الزينة والجوارب ، والعطور ، والصابون ، وكبار الحلاقين ودور النشر ، والمصورين ورجال الصناعة والمال والأعمال .. إلخ .

ولا تنس شركات هوليوود السينمائية .. فمن المؤكد أنها ستتهافت طالبة إليّ القيام بدور « كليوباترا » في نظير مبلغ لم يدفع قط لإنسان ، وقل مثل ذلك عن مسارح برودواى الشهيرة ، ومن يدرى ما ستعرض عليّ أيضا من عمل ومن مال ..

ـ طبيعي جدا أن يكون لك مال كثير وثروة ضخمة ، لتقتني الجواهر والنفائس ، وتملكي في كل قارة أكثر من قصر وفي كل بحر أكثر من يخت وتعيشي حياة الترف الخليقة بك وباسمك العظيم ! ..

ـ اسمي العظيم .. حقا سيكون كذلك ، يوم أراه منقوشا بتوقيعي الكريم ، على كل علبة بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر شفاه ، وصبغة أظافر .. ! هذا هو عصرك وبلدك .. وهذا هو حبك . وهذا هو كل مستقبلي ! ..

وقامت غاضبة ، وفي عينيها دمعة ، أخفتها بأصبعها ، وانصرفت مسرعة ، فنهض « ماك » خلفها وهو يصيح بها :

ـ كليو ... كليو ... إني أمزح .

ـ لا .. أنت لا تمزح . إني أقرأ ما في أعماق نفسك أنك لن تستطيع طويلا أن تقنع بحبي لك في زى ضابطة . أنت تريد أن أحبك أمام الدنيا في ثياب « كليوباترا » وإن صبرت اليوم فلن تصبر غدا .. إني أعرف غروركم !

وبرق عندئذ في رأسها خاطر ، فقالت :

- ومع ذلك .. فقد فاتنا شيء خطير . ليس فى مقدورك أن تكشف أمرى .. إن ذلك يعرضك لكارثة :

هب أنك أقدمت وأعلنت حقيقتى للناس .. أتعلم ما الذى يحدث ؟ ..

- ماذا ؟

- يحدث لك ما حدث لكل من أعلن مثل هذا الأمر من قبلك : لن يصدقك الناس .. فإذا أصررت وماريت وجادلت قادوك بكل بساطة إلى مستشفى المجاذيب .

- ماذا تقولين ؟

- أقول الحقيقة . لقد كذبت عليك يوم قلت إن ظهورى لك لم يحدث مثله من قبل لبشر . الواقع أن كثيرين من الموتى يظهرون للأحياء . وأن كثيرين من الأحياء يعيشون ويختلطون بالموتى . إن الحاجز بين العالمين غير موجود . إنه حاجز وهمى ، هو العقل الذى يسدل ذلك الستار بين هذين العالمين . ولكن من الناس من يخرج أحيانا على سلطان العقل ، فيرفع فى الحال الستر لنفوسهم ويبصرون ما وراءه ويمتزجون بمن خلفه . فإذا احتفظوا بهذا السر لأنفسهم سلموا .. أما إذا باحوا به فقد اتهموا بالجنون .. ثق أن كثيرين قد ظهرت لهم « حتشبسوت » و « نفرتيتى » و« سميراميس » كما ظهرت أنا لك .. وعاشوا متحابين آمنين ما بقى السر مكتوما .. أما الذين فقدوا ضبط أعصابهم فأعلنوا ذلك للناس ، فهم أولئك الذين تراهم يعمرون مصحات الأمراض العصبية والعقلية .

- ما أظلم الناس ! ..

- بل ما أظلم العقل ! .. هو الحاكم المسيطر فى حياة البشر ، الذى يحجب عنهم نصف الوجود ، فمن جرؤ ونزعه ليرى خارجه .. لم يقل الناس إنه تحرر ، بل قالوا إنه مرض .. ذلك أن هذا الحاكم الجبار ككل طاغية ، لا يسمى الخارج عليه متحررا ، بل يسميه مريضا يستحق العلاج والحبس ..

- من حسن الحظ أن أمريكا بلد الحرية ، ونحن فيها نكره الطغاة والمسيطرين .. وإنك سترين للحرية تمثالا عظيما عند مدخل نيويورك .. فاطمئنى ياكليو ، ولا تخافى شيئا ..

- حقا إنها لحرية فى تمثال ، ولا أكثر من تمثال ! .. ستبوح للناس إذن ؟ ..

- لا . لا .. لم أقل ذلك .

- أرى فى عينيك ..

- إذا وافقت أنت . ومن يدرى ؟ قد توافقين يوما ...

- سترى إذن ما أصنع ..

* * *

مرت أسابيع .. وإذا صحفى ذو شأن يأتى من نيويورك ليجرى حديثا مع « ماك آرثر » ..

وطالعت « كليوباترا » فى وجه القائد الأمريكى ما رابها وأثار قلقها .. وأدركت أنه قد لا يستشيرها ، ورجحت أن لسانه سينطلق .. وأنه قد يضعها أمام الأمر الواقع وجها لوجه .. ويقدمها للصحفى قائلا :

- « الملكة كليوباترا » أو « مسز كليوباترا » ! ..

لم تطق هذه الفكرة .. وأسرعت من فورها تبحث عن ثعبان ...

لقد جربت الموت من عضته . إنه لا يحدث تشنجا ولا تمزقا بل يغرق الإنسان في شبه نعاس هادئ يتمنى من يقع فيه ألا يصحو منه .. إلى أن تضعف حواسه ويموت موتا لذيذا ..

غير أنها ذكرت وقتئذ أن « الأسبيرين » يحدث اليوم عين الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهي بملابس الضابطة ... وابتلعت أنبوبتين ...

وعلم « ماك » بالحادث .. فدخل عليها مسرعا ، فوجدها في النزع الأخير . وانحنى عليها متفجعا ، وهمس في أذنها :

- كليو .. كليو .. ماذا صنعت ؟!

فقالت وهي تحتضر :

- هل أخبرت الصحفي ؟

- كلا يا كليو .

- ماك .. احفظ سري في قلبك وحده ! ..

وأسلمت الروح .. للمرة الثانية .. وربما للمرة الثالثة أو العاشرة .. أو المائة .. لا أحد يدري ..

ظل هذا السر مكتوما بالفعل زمنا .. إلى أن مرض « ماك آرثر » بحمى خفيفة ، فجعل يهذي في الليل ، ويقول للممرضة القائمة على فراشه :

- كليو .. كليو .. هل عدت إلى الحياة مرة أخرى من أجلي ؟!

وحـار جميـع مـن حولـه فـى أمـر « كليـو » هـذه .. فهـم لم يسـمعوا « الجنرال » يلفظ هذا الاسم أمامهم من قبل ..

وتساءلوا من تكون ؟ أتراها تلك الضابطة « مسز كليتون » سكرتيرته التى أمضها الأرق ، فماتت منتحرة بالأسبيرين ؟!

هكذا قال من أخذ الأمور بظواهرها .. أما الحقيقـة التـى لم تنشـر حتـى الآن ، فهى التى رويت هنا بحذافيرهـا . ولمـن يرتـاب أن يلجـأ إلى الجنرال « ماك آرثر » نفسه ... وهو لن يستطيع أن ينفى الواقعة .

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالسا على إفريز المقهى المعتاد بجوار صديقى حسن « بك » . وهو ليس من أصحاب الألقاب ولا حملة الرتب ولكن هكذا نناديه ، لأن حب المظهر شيء في دمه ، والرغبة في «التظاهر» طبع فيه .

مر بى في ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمته ، ولم أكن رأيته منذ شهور . وأمرت له بفنجان من القهوة . وأخذنا فى الحديث . وإذا شخص يدنو منى مبتسما مترددا فالتفت إليه وبادرته :

ـ من حضرتك ؟

ـ أنا اسمى .. مرقص ..

ـ طلباتك ؟

فمال على أذنى هامسا :

ـ هل تقبل أن تكسب خمسين قرشا فى اليوم ، وأنت جالس فى مكانك، هذا ، بدون أن تصنع شيئا ؟

ـ بالطبع . لا موجب للرفض .

قلتها على البديهة كأنها من وحى الشعراء ، فبادر الرجل يقول :

ـ إذن اتفقنا .. وهذه دفعة على الحساب ..

وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشا ، ودسها فى كفى ، فوضعتها على الفور فى جيبى ، وأنا أقول :

ـ اتفقنا .

وانصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذى انقطع بينى وبين حسن « بك » ، ولكن الرجل حدجنى بنظرة شديدة وقال :

ـ ألا تسألنى عن أصل الموضوع !؟

ـ أى موضوع ؟

ـ لماذا إذن أعطيك هذه النقود ؟

ـ وهل أنا أعرف ؟ كل معلوماتى فى الأمر ، أنه قد تم بيننا اتفاق . ألم يحصل بيننا الآن اتفاق ؟ .. ألم يقع عرض وقبول ؟ .. أما من جهتى فقد قبلت وانتهى الأمر .. بهذه المناسبة أحب أن أستفسر منك لماذا تعطينى هذا المبلغ ؟ ..

ـ أخيرا . اسمع يا سيدى . المسألة بسيطة . أنت تجلس هنا دائما تراقب المارة فى غير شىء ، فلن يكلفك جهدا أن تراقب سيدة يقال أنها تتردد على هذه العمارة .. فتعرف لنا فى أى ساعة بالضبط تدخل ، وفى أى ساعة تخرج ؟

ـ وما شأنك بهذه السيدة ؟

ـ لا شأن لى بها على الإطلاق ، ولم أرها قط ...

ـ عجبا ! .. وما الداعى إذن لأن تجعلنى شرلوك هولمز فى مسألة لا تعنيك ولا تعنينى ؟!

فتنحنح الرجل ثم قال :

ـ فلنتكلم بصراحة . لا أحسن من الصدق والصراحة . أنا فى الحقيقة المكلف بهذه المراقبة فى نظير مبلغ جنيه ، ولكننى مشغول بعمل آخر ، وليس لدى الوقت الذى يمكننى من أداء هذه المهمة .. ففكرت فى أن أستأجرك من الباطن ، ونتقاسم المبلغ ..

ـ عظيم يا مرقص أفندى . أنت فى الحقيقة هو الذى لا يصنع شيئا ويتقاضى خمسين قرشا .

ـ وأنت أيضا لا تصنع شيئا .

ـ كيف تقول ذلك يا مرقص أفندى ؟ فأنا الذى سأقوم بكل المهمة .

ـ بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصتى ؟ فليكن ما تريد . أنا لا أحب أن أغضبك ، إليك عشرة قروش أخرى ..

ـ خمسة وعشرين من فضلك !

ـ تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه وأنا الربع ؟!

ـ هكذا العدل .

فنفخ الرجل غيظا . ولكن لم يجد من القبول بدا . فأخرج من جيبه فرق المبلغ ، ونقدنى إياه دون أن ينبس بحرف . فوضعت النقود فى جيبى ووعدته خيرا ، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسى . ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

ـ حضرتك لم تسألنى عن السيدة .

ـ أى سيدة ؟

ـ التى ستراقبها . كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف منى أوصافها ؟

ـ حقيقة . غاب عن فطنتي ذلك . اذكر لى أوصافها .

ـ خير من هذا أن أريك صورتها ، لتنطبع ملامحها فى رأسك جيدا .. إليك الصورة .. انظر ..

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة أطلعنى عليها بحذر وهى فى يده . فقلت له :

ـ هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟

ـ ليس هذا من المستحسن ، لأنى وعدت أن أحرص عليها ولا أسلمها لأحد .

ـ ومن الذى أعطاك إياها ؟

ـ لا يا سيدى ، هذه أسرار خاصة ، لا يجوز لنا الخوض فيها . هذا لا يعنينا . فلنعمل فى حدود التكليف ، ولا دخل لنا فى الباقى .

ـ أهو زوجها ؟

ـ لا أظن .

ـ لعله خليلها .

ـ ربما .

ـ خليلها يشك فى سيرها ويغار على سلوكها ؟!

ـ فراستك فى محلها . على كل حال هذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه . أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أنّ تكون عندنا فى الحفظ والصون ..

ـ مفهوم .

ـ والآن ... أنا معتمد عليك .

ـ اطمئن ... فقط لا أخفى عنك أن ذاكرتى ضعيفة ولا يعتمد عليها ، فمن مصلحة العمل أن تترك لى الصورة ، ولو ليوم واحد ، أرجع إليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط . إن السيدات المارات كثيرات . ومن الصعب على مثلى أن يفرز هذه من تلك .

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأسه قليلا ثم مد لى يده بالصورة وهو يقول : « لا بأس . أبقها معك اليوم » وأوصانى بالمحافظة عليها لحين ردها إليه فى الغد ..

وانصرف مرقص أفندى مشيعا بعبرات التجلة والاحترام . وما كاد يختفى عن بصرى ، حتى ملت على جليسى حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها ، مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشا بالطبع ، وختمت الكلام بقولى :

ـ أنت تعرف أن غفلتى أكبر من فطنتى ، وأن سهوى أكثر من صحوى ، وأما أنت فكثير الفطنة شديد اليقظة ، فما رأيك لو قمت عنى بهذه المهمة .. وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التى سأطلعك عليها الآن ؟ .. على أنى قبل كل شىء أحب أن أصارحك بأن هذا عمل بأجر ..

فضحك حسن بك وقال :

ـ لا عليك ... إننى سأقوم به لوجه الله .

ـ لا يا سيدى الفاضل . الشغل شغل . لا يوجد شيء اسمه لوجه اللّه . وهل تظن وجه اللّه يرى بلا ثمن ؟ هذا التعبير خطأ في خطأ . ولست أدرى من ابتدعه . إن وجه اللّه لا يشاهد بالمجان بل بمصروفات . وإليك البيان : لابد من دفع صدقة وزكاة ونذور وفداء وكفارة ونفقات وتكاليف زيارة وإغاثة ملهوف والتضحية في العيد بخروف .. إلى آخر تلك المبالغ التى لو جمعتها لكان الحاصل رقما لا يستهان به . فدع فكرة التبرع وتناول أجر عملك طبقا للأصول المعمول بها فى جميع الأحوال .

ـ أمرك . انقدنى الأجر إذن .

ـ سأدفع لك ثمن فنجان القهوة .. أتقبل ؟

ـ قبلت .

قالها راضيا مغتبطا ، ومد يده ليتناول من يدى الصورة .

فقلت له :

ـ مهلا . يجب أن تردها إلىّ قبل قيامك . فقد وعدت أن أردها إلى الرجل غدا ..

فقال بابتسامة بريئة :

ـ طبعا ، وما الداعى لاحتفاظى بها طويلا ؟ .

فوضعتها فى كفه .. فرفعها إلى عينيه باسما بغير اكتراث . ولكن .. لم يكد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت يداه ، وارتعشت شفتاه .. وهالنى أمره فقلت له :

ـ حسن بك .. مالك ؟

فلم يعن بالرد على سؤالى ، وبقى جالسا فى مكانه غائبا عن الوجود ، يلقى نظره . على الصورة وتصبب العرق من جبينه . فهززته بيدى قائلا : ماذا حدث ؟

فلم يجب . وخيل إلىّ أن أذنه لم تعد تسمع . وجمدت عيناه .

ـ مالك ياحسن بك ؟ هل .. هل تعرفها ؟

فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

ـ كيف لا أعرفها وهى .. زوجتى ؟!

وانتفض الرجل انتفاضة خلت روحه قد خرجت معها ووثب من مقعده ، وانطلق فى الشارع يعدو كالمجنون . ولم يلبث أن غاب عن نظرى الشارد ، وفكرى الذاهل . وكدت أصيح فى أثره .

ـ الصورة ... الصورة ..

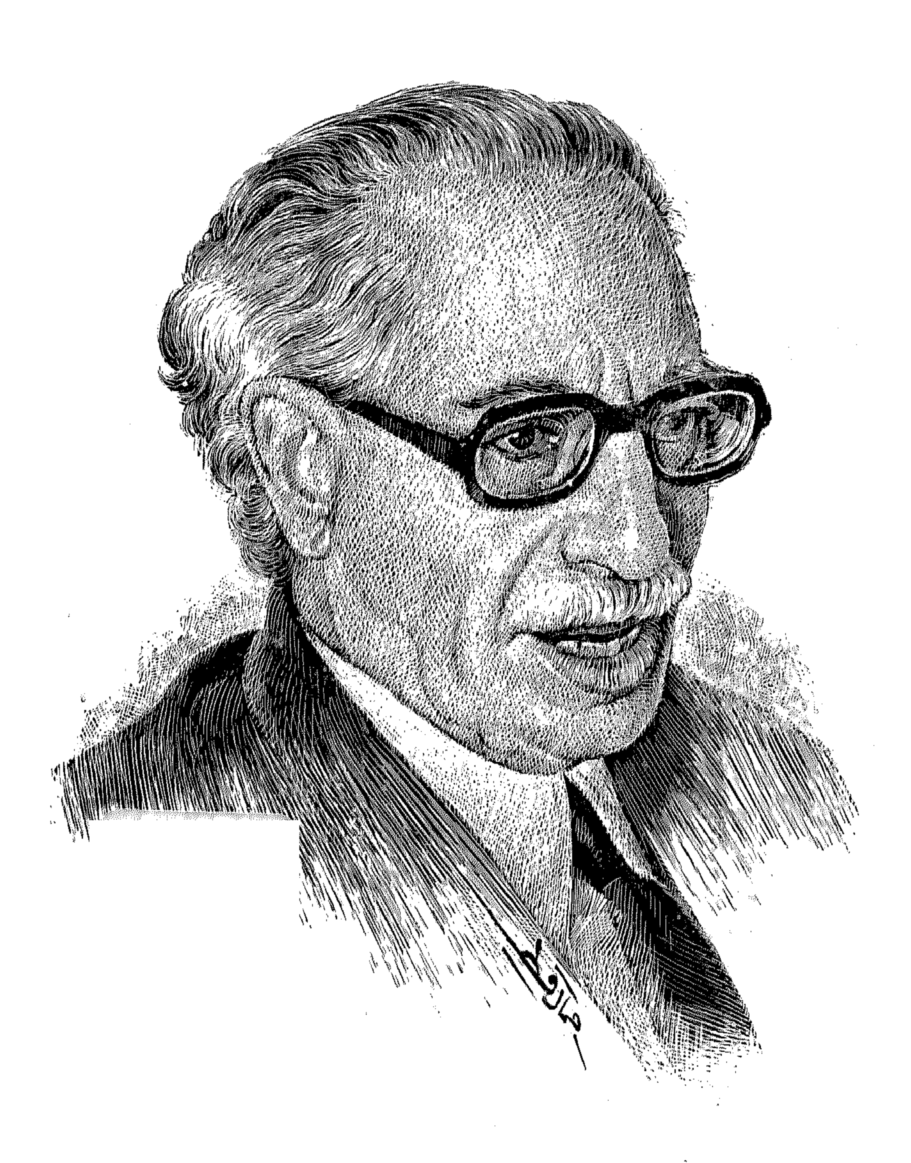
ولكننى تذكرت فجأة كارثته . وأدركت أنها له . وأنه أحق أهل الأرض بحملها والاحتفاظ بها . فملكت نفسى ... وثاب إلىّ رشدى قليلا قليلا فلعنت يومى . ولعنت مرقص أفندى .. ولعنت الخمسة والسبعين قرشا ، التى خسرت من أجلها صديقى ، وخسر الصديق زوجته وخسرت الزوجة خليلها .. ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدى إلى هذه الفواجع كلها ، لطالبت مرقص أفندى بما لا يقل عن خمسة جنيهات !! ..

انتهت

رقم الإيداع : ١٧٦٩٨ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 5 - 1385 - 11 - 977







دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٣٠٠ قرش